إن أعادوا الخيانة، وقيل: المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء. الذين هاجروا أي: فارقوا أوطانهم وقومهم حبًا لله، ورسوله هم المهاجرون. والذين آووهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم هم الأنصار ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي: يتولى بعضهم بعضًا في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوي القرابات حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾[1]. وقرئ: من ولايتهم بالفتح والكسر أي: من توليهم في الميراث، ووجه الكسر: أن تولي بعضهم بعضًا شبه بالعمل والصناعة كأنه يتوليه صاحبه يزاول أمرًا ويباشر عملاً ﴿فعليكم النصر﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إلا على قوم﴾ منهم ﴿وبينكم وبينهم﴾ عهد فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم؛ لأنهم لا يبتدؤن بالقتال إذ الميثاق مانع من ذلك.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾.

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم كقوله تعالى في المسلمين ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ ومعناه نهي المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضًا، ثم قال: ﴿إلا تفعلوه﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضًا في التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة، تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة؛ لأنّ المسلمين ما لم يصيروا يدًا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرًا والفساد زائدًا. وقرئ: كثير بالثاء.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۖ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾.

﴿أولئك هم المؤمنون حقًا﴾؛ لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والانسلاخ من المال لأجل الدين وليس بتكرار؛ لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم مع الموعد الكريم والأولى للأمر بالتواصل.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾.

﴿والذين آمنوا من بعد﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة كقوله: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾[2] ألحقهم بهم وجعلهم منهم تفضلاً منه وترغيبًا ﴿وأولو الأرحام﴾ أولو القرابات أولى بالتوارث، وهو: نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة ﴿في كتاب الله﴾ تعالى في حكمه وقسمته وقيل: في اللوح، وقيل: في القرآن وهو: آية المواريث، وقد استدل به أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على توريث ذوي الأرحام.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه بريء من النفاق، وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته في الدنيا»[3].

سورة التوبة مدنية

لها عدّة أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدمدمة، سورة العذاب لأنّ فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي: تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها، وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرد بهم وتخزيهم وتدمدم عليهم، وعن حذيفة رضي الله عنه: أنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحدًا إلا نالت منه.

فإن قُلْتَ: هلا صدرت بآية التسمية كما في سائر السور؟ **قُلْتُ:** سأل عن ذلك ابن عباس عثمان رضي الله عنهما فقال: إنّ رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه السورة أو الآية قال: اجعلوها في الموضع الذي ينكر فيه كذا وكذا[4]، وتوفي رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أين نضعها، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فلذلك قرنت بينهما، وكانتا تدعيان القرينتين، وعن أبي بن كعب: إنما توهموا ذلك؛ لأنّ في الأنفال ذكر العهود، وفي براءة نبذ العهود، وسئل ابن عيينة رضي الله عنه فقال: اسم الله سلام وأمان فلا يكتب في النبذ والمحاربة قال الله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا﴾[5] قيل: فإن النبي ﷺ قد كتب إلى أهل الحرب بسم الله الرحمن الرحيم[6] قال: إنما ذلك ابتداء يدعوهم ولم ينبذ إليهم، ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى، فمن دعي إلى الله عزّ وجلّ فأجاب، ودعي إلى الجزية فأجاب، فقد اتبع الهدى، وأما النبذ فإنما هو: البراءة واللعنة، وأهل الحرب لا يسلم عليهم ولا يقال: لا تفرق ولا تخف ومترس ولا بأس هذا أمان كله، وقيل: سورة الأنفال والتوبة سورة

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 75.
(2) سورة الحشر، الآية: 10.
(3) ذكره الثعلبي في تفسيره.
(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة باب: من جهر بهذا (الحديث رقم: 786)، والترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: من سورة = التوبة (الحديث رقم: 3086).
(5) سورة النساء، الآية: 94.
(6) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: (6) (الحديث رقم: 7) ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: بدء الوحي.

واحدة كلتاهما نزلت في القتال، تعدان السابعة من الطول، وهي سبع وما بعدها المائون، وهذا قول ظاهر؛ لأنهما معًا مائتان وست، فهما بمنزلة إحدى الطول، وقد اختلف أصحاب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة، وقال بعضهم: هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال: هما سورة واحدة.

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾.

﴿براءة﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هذه براءة و ﴿من﴾ لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وليس بصلة كما في قولك: برئت من الدين، والمعنى: هذه براءة واصلة من الله ورسوله ﴿إلى الذين عاهدتم﴾ كما يقال: كتاب من فلان إلى فلان، ويجوز أن يكون براءة مبتدأ لتخصيصها بصفتها والخبر إلى الذين عاهدتم كما تقول: رجل من بني تميم في الدار. وقرئ*: براءة بالنصب على اسمعوا براءة. وقرأ أهل نجران من الله بكسر النون، والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرته، والمعنى: أنّ الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين وأنه منبوذ إليهم.

فإن قُلْتَ: لم علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ **قُلْتُ**: قد أذن الله في معاهدة المشركين أوّلاً، فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخوطب المسلمون بما تجدد من ذلك فقيل لهم: اعلموا[1] أنّ الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين. روي أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب فنكثوا إلا ناسًا منهم وهم: بنو ضمرة وبنو كنانة، فنبذ العهد إلى الناكثين وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاؤا لا يتعرّض لهم وهي الأشهر الحرم في قوله: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾[2] وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها، وكان نزولها سنة تسع من الهجرة، وفتح مكة سنة ثمان، وكان الأمير فيها عتاب ابن أسيد، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه على موسم سنة تسع، ثم أتبعه عليًا رضي الله عنه راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني، فلما دنا عليّ سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ فلما لحقه قال: أمير أو مأمور قال: مأمور[3]. وروي أنّ أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام فقال: يا محمد لا يبلغنّ رسالتك إلا رجل منك، فأرسل عليًا، فرجع أبو بكر رضي الله عنهما إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أشيء نزل من السماء قال: نعم فسر وأنت على الموسم وعلي ينادي بالآي فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه، وحدّثهم عن مناسكهم، وقام عليّ رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: يا أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية، وعن مجاهد رضي الله عنه: ثلاث عشرة آية، ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده، فقالوا عند ذلك: يا عليّ أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف، وقيل: إنما أمر أن لا يبلغ عنه إلا رجل منه؛ لأنّ العرب عادتها في نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها، فلو تولاه أبو بكر رضي الله عنه لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما يعرف فينا في نقض العهود، فأزيحت علتهم بتولية ذلك عليًا رضي الله عنه.

فإن قُلْتَ: الأشهر الأربعة ما هي؟ **قُلْتُ**: عن الزهري رضي الله عنه: أنّ براءة نزلت في شوال، فهي أربعة أشهر: شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأوّل وعشر من شهر ربيع الآخر وكانت حرمًا؛ لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم أو على التغليب؛ لأنّ ذا الحجة والمحرم منها، وقيل: لعشر من ذي القعدة إلى عشر من ربيع الأوّل؛ لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسيء الذي كان فيهم ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة.

فإن قُلْتَ: ما وجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الأشهر الحرم وقد صانها الله تعالى عن ذلك **قُلْتُ**: قالوا: قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها ﴿غير معجزي الله﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم. وهو مخزيكم أي: مذلكم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب.

---

(1) قال أحمد: ووراء ما ذكره سر آخر، هو المرعي، والله أعلم، وذلك أنّ نسبة العهد إلى الله ورسوله في مقام نسب إليه النبذ من المشركين، لا تحسن شرعاً الا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ لأمراء السرايا حيث يقول لهم، وإذا نزلت بحصن، فطلبوا النزول على حكم الله، فانزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أصادفت حكم الله فيهم أولاً، وإن طلبوا ذمّه الله، فانزلهم عن ذمّتك، فلأن تخفر ذمّتك خير من أن تخفر ذمّة الله، فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام، بتوقير ذمّة الله مخافة أن تخفر، وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع، فتوقير عهد الله، وقد تحقق من المشركين النكث، وقد تبرأ من الله ورسوله بأن لا ينسب العهد المنبوذ إلى الله أحرى، وأجدر، فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه، والله أعلم.

(2) سورة التوبة، الآية: 5.

(3) قال الزيلعي: غريب. ونكر حديث قريب منه، أخرجه الحاكم، وقال الذهبي: عنه موضوع 2/50.

وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾.

﴿وأذان﴾ ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين، ثم الجملة معطوفة على مثلها ولا وجه لقول من قال: إنه معطوف على براءة، كما لا يقال عمر ومعطوف على زيد في قولك: زيد قائم وعمرو قاعد والأذان بمعنى: الإيذان وهو: الإعلام، كما أن الأمان والعطاء بمعنى: الإيمان والإعطاء.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية؟ **قُلْتُ:** تلك إخبار بثبوت البراءة وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت.

فإن قُلْتَ: لم علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس؟ **قُلْتُ:** لأنّ البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأمّا الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث **﴿يوم الحج الأكبر﴾** يوم عرفة، وقيل: يوم النحر؛ لأنّ فيه تمام الحج ومعظم أفعاله من الطواف والنحر والحلق والرمي، وعن عليّ رضي الله عنه: أنّ رجلاً أخذ بلجام دابته فقال: وما الحج الأكبر؟ قال: يومك هذا خل عن دابتي[1]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: هذا يوم الحج الأكبر[2]، ووصف الحج بالأكبر لأنّ العمرة تسمى: الحج الأصغر، أو جعل الوقوف بعرفة هو: الحج الأكبر لأنه معظم واجباته؛ لأنه إذا فات فات الحج، وكذلك إن أريد به يوم النحر؛ لأنّ ما يفعل فيه معظم أفعال الحج فهو الحج الأكبر، وعن الحسن رضي الله عنه: سمي يوم الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين فيه وموافقته لأعياد أهل الكتاب ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده، فعظم في قلب كل مؤمن وكافر. حذفت الباء التي هي صلة الأذان تخفيفًا، وقرئ: إنّ الله بالكسر؛ لأنّ الأذان في معنى القول **﴿ورسوله﴾** عطف على المنوي في بريء، أو على محل إن المكسورة واسمها، وقرئ: بالنصب عطفًا على اسم إنّ، أو لأنّ الواو بمعنى: مع أي: بريء معه منهم، وبالجر على الجوار، وقيل: على القسم كقوله: لعمرك، ويحكى أنّ إعرابيًّا سمع رجلاً يقرأها فقال: إن كان الله بريئًا من رسوله فأنا منه بريء، فلببه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته: فعندها أمر عمر رضي الله عنه بتعلم العربية[3] **﴿فإن تبتم﴾** من الكفر والغدر **﴿فهو خير لكم وإن توليتم﴾** عن التوبة أو ثبتم على التولي والإعراض عن الإسلام والوفاء فاعلموا أنكم غير سابقين الله تعالى ولا فائتين أخذه وعقابه.

فإن قُلْتَ:ممّ استثنى قوله: **﴿إلاّ الذين عاهدتم﴾**؟ **قُلْتُ**[4]: وجهه أن يكون مستثنى من قوله: **﴿فسيحوا في الأرض﴾**؛ لأنّ الكلام خطاب للمسلمين ومعناه: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقضوا فأتموا إليهم عهدهم[5]، والاستثناء بمعنى: الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين: ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفيّ كالغادر. إنّ الله يحب المتقين يعني: أنّ قضية التقوى أن لا يسوّي بين القبيلتين فاتقوا الله في ذلك **﴿لم ينقصوكم شيئًا﴾** لم يقتلوا منكم أحدًا ولم يضرّوكم قط **﴿ولم يظاهروا﴾** ولم يعاونوا **﴿عليكم﴾** عدوًّا كما عدت بنو بكر على خزاعة عبيد رسول الله ﷺ وظاهرتهم قريش بالسلاح، حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي على رسول الله ﷺ فأنشد:

لاهم أني ناشدًا محمدًا ... حلف أبينا وأبيك الأتلدا
إنّ قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا نمامك المؤكدا
هم بيتونا بالحطيم هجينًا ... وقتلونا ركعًا وسجدا

فقال عليه الصلاة والسلام: «لا نصرت إن لم أنصركم». وقرئ: لم ينقضوكم بالضاد معجمة أي: لم ينقضوا

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الحج، باب: الخطبة أيام منى، وأخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: يوم الحج الأكبر (الحديث رقم: 1945)، والحاكم في المستدرك 2/331 وأبو نعيم في الحلية 10/274.

(3) قال الزيلعي: نكر القرطبي الفقه في كتابه: التنكار، ولم يعزوه 2/53.

(4) قال أحمد: ويجوز أن يكون قوله: ﴿فسيحوا﴾ خطاباً من الله تعالى للمشركين غير مضمر قبله القول، ويكون الاستثناء على هذا من قوله إلى الذين عاهدتم، كأنه قيل براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين، لا الباقين على العهد، فأتموا إليهم أيها المسلمون عهدهم، ويكون فيه خروج من خطاب المسلمين في قوله إلى = النين عاهدتم إلى خطاب المشركين في قوله، فسيحوا ثم التفات من التكلم إلى الغيبة بقوله واعلموا أنكم غير معجزي الله، وأنّ الله وأصله، واعلموا أنكم غير معجزي، وأني وفي هذا الالتفات بعد الالتفات الأوّل افتنان في أساليب البلاغة، وتفخيم للشأن، وتعظيم للأمر، ثم يتلو هذا الالتفات العود إلى خطاب المسلمين بقوله إلا النين عاهدتم، ثم لم ينقصوكم، فأتموا وكلّ هذا من حسنات الفصاحة، وإنما بعث الزمخشري على تقدير القول قيل: فسيحوا مراعاة أن يطابق قوله، فأتموا إذا المخاطب على هذا التقدير المسلمون أوّلاً وثانياً، ولا يكون فيه شيء من الالتفاتات المبنية على التأويل، الذي نكرناه، وكلا الوجهين ممتاز بنوع من البلاغة، وطرف من الفصاحة، والله أعلم.

(5) نكره ابن هشام في السيرة 2/388.

عهدكم، ومعنى ﴿فاتموا إليهم﴾ فأدّوه إليهم تامًّا كاملاً قال ابن عباس رضي الله عنه: بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر فأتمّ إليهم عهدهم. انسلخ الشهر كقولك: انجرد الشهر وسنة جرداء.

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۖ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾.

و﴿الأشهر الحرم﴾ التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا ﴿فاقتلوا المشركين﴾ يعني: الذين نقضوكم وظاهروا عليكم ﴿حيث وجدتموهم﴾ من حلّ أو حرم ﴿وخذوهم﴾ وأسروهم، والأخيذ الأسير ﴿واحصروهم﴾ وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد، وعن ابن عباس رضي الله عنه: حصرهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام ﴿كلّ مرصد﴾ كلّ ممرّ[1] ومجتاز ترصدونهم به وانتصابه على الظرف كقوله: ﴿لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾[2] ﴿فخلوا سبيلهم﴾ فاطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر أو فكفوا عنهم ولا تتعرّضوا لهم كقوله: خل السبيل لمن يبني المنار به. وعن ابن عباس رضي الله عنه: دعوهم وإتيان المسجد الحرام ﴿إنّ الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾.

﴿أحد﴾ مرتفع بفعل الشرط مضمرًا يفسره الظاهر تقديره: وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء؛ لأنّ إن من عوامل الفعل لا تدخل على غيره، والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن وتبين ما بعثت له فأمنه ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثم أبلغه﴾ بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم، ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت، وعن الحسن رضي الله عنه: هي محكمة إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى عليّ رضي الله عنه فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمدًا بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله أو يأتيه لحاجة قتل؟ قال: لا؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾ الآية، وعن السدي والضحاك رضي الله عنهما: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين﴾[3] ﴿ذلك﴾ أي: ذلك الأمر يعني: الأمر بالإجارة في قوله فأجره ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم﴾ ﴿قوم﴾ جهلة ﴿لا يعلمون﴾ ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بدّ من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾.

﴿كيف﴾ استفهام في معنى الاستنكار والاستبعاد؛ لأن يكون للمشركين عهد عند رسول الله ﷺ وهم أضداد وغرة صدورهم يعني: محال أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك ولا تحدّثوا به نفوسكم ولا تفكروا في قتلهم. ثم استدرك ذلك بقوله ﴿إلا الذين عاهدتم﴾ أي: ولكن الذين عاهدتم منهم ﴿عند المسجد الحرام﴾ ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة وبني ضمرة فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم ﴿فما استقاموا لكم﴾ على العهد ﴿فاستقيموا لهم﴾ على مثله ﴿إن الله يحبّ المتقين﴾ يعني: أنّ التربص بهم من أعمال المتقين ﴿كيف﴾ تكرار[4] لاستبعاد ثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلومًا كما قال:

وخبر تماني إنما الموت بالقرى ... فكيف وهاتا هضبة وقليب

يريد فكيف مات أي: كيف يكون لهم عهد ﴿و﴾ حالهم أنهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ بعدما سبق لهم من تأكيد الإيمان والمواثيق لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقوا عليكم ﴿لا يرقبوا فيكم إلا﴾ لا يراعوا حلفًا، وقيل: قرابة، وأنشد لحسان رضي الله عنه:

لعمرك إن إلك من قريش ... كآل السقب من رأل النعال

وقيل: إلا الهاء، وقرئ*: إيلا بمعناه وقيل: جبرئيل وجبرئل من ذلك، وقيل: منه اشتق الآل بمعنى: القرابة كما اشتقت الرحم من الرحمٰن، والوجه أن اشتقاق الإلّ بمعنى: الحلف؛ لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه من الآل وهو: الجؤار، وله أليل أي: أنين يرفع به صوته، ودعت أليلها إذا ولولت، ثم قيل: لكل عهد وميثاق

---

(1) قال أحمد: ويكون انتصابه دون جرّه من الاتساع؛ لأنّ المرصد ظرف مختص، والأصل قصور الفعل عن نصبه، ويكون مثل قوله في الاتساع. كما عسل الطريق الثعلب. ويحتمل، والله أعلم أن يكون مرصد مصدراً؛ لأنّ صيغة اسم الزمان والمكان، والمصدر من فعله واحدة، فعلى هذا يكون منصوباً نصباً أصلياً، لأن اقعدوا في معنى ارصدوا؛ كأنه قيل: وارصدوهم كلّ مرصد؛ إلا أن الظرفية يقوّيها قوله حيث وجدتموم، فيقتضيها قصد المطابقة بين ظرفي المكان، والله أعلم.

(2) سورة الأعراف، الآية: 16.

(3) سورة التوبة، الآية: 5.

(4) قال أحمد: السر في تكرار كيف، والله أعلم أنه لما نكره أولاً، لاستبعاد ثبات عهدهم عند الله، ولم يذكر إذ ذاك سبب البعد للغاية، باستثناء الباقين على العهد، وطال الكلام أعيدت كيف تطرية للنكر، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض، فلم يقصد مجرد التكرار، بل هذا السر الذي انطوى عليه، وقد تقدمت له أمثال، والله الموفق.

إل، وسميت به القرابة؛ لأنّ القرابة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق ﴿يرضونكم﴾ كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرّر لاستبعاد الثبات منهم على العهد. وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ متمرّدون خلعاء لا مروءة تزعهم ولا شمائل مرضية تردعهم، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة من التفادي عن الكذب والنكث والتعفف عما يثلم العرض ويجرّ أحدوثة السوء.

﴿اشتروا﴾ استبدلوا ﴿بآيات الله﴾ بالقرآن والإسلام ﴿ثمنًا قليلاً﴾ وهو اتباع الأهواء والشهوات ﴿فصدّوا عن سبيله﴾ فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم، وقيل: هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم ﴿هم المعتدون﴾ المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة ﴿فإن تابوا﴾ عن الكفر ونقض العهد ﴿فإخوانكم في الدين﴾ فهم إخوانكم على حذف المبتدأ كقوله تعالى: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم﴾[1] ﴿ونفصل الآيات﴾ ونبينها وهذا اعتراض كأنه، قيل: وإن من تأمّل تفصيلها فهو العالم بعثًا وتحريضًا على تأمّل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها.

﴿وطعنوا في دينكم﴾ وثلبوه وعابوه ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ فقاتلوهم فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم إشعارًا بأنهم إذا نكثوا في حال الشرك تمرّدًا وطغيانًا وطرحًا لعادت الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخوانًا للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون: ليس دين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر ونوو الرياسة والتقدّر فيه لا يشق كافر غبارهم، وقالوا إذا طعن الذمي في دين الإسلام طعنًا ظاهرًا جاز قتله؛ لأنّ العهد معقود معه على أن لا يطعن فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمّة ﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ جمع يمين، وقرئ: لا إيمان لهم أي: لا إسلام لهم، أو لا يعطون الأمان بعد الردّة والنكث ولا سبيل إليه.

فإن قُلْتَ: كيف أثبت لهم الإيمان في قوله ﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ ثم نقاها عنهم؟ **قُلْتُ:** أراد أيمانهم التي أظهروها، ثم قال: لا أيمان لهم على الحقيقة وأيمانهم ليست بأيمان، وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله: على أن يمين الكافر لا تكون يمينًا، وعند الشافعي رحمه الله: يمينهم يمين، وقال: معناه: أنهم لا يوفون بها بدليل أنه وصفها بالنكث ﴿لعلهم ينتهون﴾ متعلق بقوله: فقاتلوا أئمة الكفر أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سببًا في انتهائهم عما هم عليه، وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد.

فإن قُلْتَ: كيف لفظ أئمة؟ **قُلْتُ:** همزة بعدها همزة بين أي: بين مخرج الهمزة والياء، وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين، وأما التصريح بالياء فليس بقراءة ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاحن محرف.

﴿ألا تقاتلون﴾ دخلت الهمزة على لا تقاتلون تقريرًا بانتفاء المقاتلة ومعناه: الحض عليها على سبيل المبالغة ﴿نكثوا أيمانهم﴾ التي حلفوها في المعاهدة ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ من مكة حين تشاوروا في أمره بدار الندوة حتى أذن الله تعالى له في الهجرة فخرج بنفسه ﴿وهم بدؤكم أول مرة﴾ أي: وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة؛ لأنّ رسول الله ﷺ جاءهم أولاً بالكتاب المنير وتحداهم به، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادئون بالقتال والباديء أظلم، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم، وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب حقيق بأن لا تترك مصادمته وأن يوبخ من فرط فيها ﴿أتخشونهم﴾ تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها ﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ فتقاتلوا أعداءه ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه كقوله تعالى: ﴿ولا يخشون أحدًا إلا الله﴾[2].

لما وبخهم الله على ترك القتال جرّد لهم الأمر به فقال ﴿قاتلوهم﴾ ووعدهم ليثبت قلوبهم ويصحح نياتهم أنه يعذبهم بأيديهم قتلاً ويخزيهم أسرًا ويوليهم النصر والغلبة

(1) سورة الأحزاب، الآية: 5.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 39.

عليهم ﴿ويشف صدور﴾ طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، قال ابن عباس رضي الله عنه: هم بطون من اليمن وسبا قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى شديدًا، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب».

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾.

﴿ويذهب غيظ﴾ قلوبكم لما لقيتم منهم من المكروه، وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها فكان ذلك دليلاً على صدق رسول الله ﷺ وصحة نبوّته ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ ابتداء كلام وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضاً فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم، وقرئ: ويتوب بالنصب بإضمار أن ودخول التوبة في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى ﴿والله عليم﴾ يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان ﴿حكيم﴾ لا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾.

﴿أم منقطعة﴾ ومعنى الهمزة فيها: التوبيخ على وجود الحسبان، والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين الخلص منكم وهم: الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله ولم يتخذوا وليجة أي: بطانة من الذين يضادون رسول الله ﷺ والمؤمنين رضوان الله عليهم ﴿ولما﴾ معناها: التوقع وقد دلت على أن تبين ذلك وإيضاحه متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين وقوله: ﴿ولم يتخذوا﴾ معطوف على جاهدوا داخل في حيز الصلة كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله، والوليجة فعيلة من ولج كالدخيلة من دخل، والمراد بنفي العلم، نفي المعلوم كقول القائل: ما علم الله مني ما قيل فيّ يريد ما وجد ذلك مني.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾.

﴿ما كان للمشركين﴾ ما صحّ لهم وما استقام ﴿أن يعمروا مسجد الله﴾ يعني: المسجد الحرام لقوله: ﴿وعمارة المسجد الحرام﴾[1] وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان: أحدهما: أن يراد المسجد الحرام، وإنما قيل مساجد لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد؛ ولأنّ كل بقعة منه مسجد، والثاني: أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته وهو آكد؛ لأنّ طريقته طريقة الكناية كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفي لقراءته القرآن من تصريحك بذلك و ﴿شاهدين﴾ حال من الواو في يعمروا والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته، ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت وكانوا يطوفون عراة ويقولون لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي، وكلما طافوا بها شوطًا سجدوا لها، وقيل هو: قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وقيل: قد أقبل المهاجرون والأنصار على أساري بدر فعيروهم بالشرك، فطفق علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم وأغلظ في القول، فقال العباس: تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟ فقال: أو لكم محاسن؟ قالوا: نعم ونحن أفضل منكم أجرًا، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني فنزلت ﴿حبطت أعمالهم﴾ التي هي العمارة والحجابة والسقاية وفك العناة، وإذا هدم الكفر[2] أو الكبيرة الأعمال الثابتة الصحيحة إذا تعقبها فما ظنك بالمقارن؟ وإلى ذلك أشار في قوله: ﴿شاهدين﴾ حيث جعله حالاً عنهم، ودلّ على أنهم قارنون بين العمارة والشهادة بالكفر على أنفسهم في حال واحدة وذلك محال غير مستقيم.

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾.

﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ وقرئ: بالتوحيد أي: إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتدًا بها، والعمارة تتناول رم ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذكر ومن الذكر درس العلم بل هو أجله وأعظمه، وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا فضلاً عن فضول الحديث، وعن النبي ﷺ: «يأتي في آخر الزمان ناس من أمّتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقًا، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة»[3] وفي الحديث: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش»[4] وقال عليه السلام: «قال الله تعالى: إن بيوتي في أرضي المساجد، وإنّ

---

(1) سورة التوبة، الآية: 19.

(2) قال أحمد: كلام صحيح الا قوله إن الكبيرة تهدم الأعمال، فإنه تفريع على قاعدة المعتزلة، والحق خلافها.

(3) رواه ابن حبان في صحيحه 15/162، كتاب: التاريخ، باب:= إخباره ﷺ عما يكون في أمته (الحديث رقم: 6761)، والحاكم في المستدرك 4/423).

(4) الحديث لم يخرجه الزيلعي ولا ابن حجر لا هنا ولا في لقمان.

زوّاري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائره»[1] وعنه عليه السلام: «من ألف المسجد ألفه الله»[2] وقال عليه السلام: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»[3]، وعن أنس رضي الله عنه: «من أسرج في مسجد سراجًا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في تلك المسجد ضوءه».

فإن قُلْتَ: هلا ذكر الإيمان برسول الله ﷺ؟ **قُلْتُ:** لما علم وشهر أن الإيمان بالله تعالى قرينته الإيمان بالرسول عليه السلام لاشتمال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما مقترنين مزدوجين كأنهما شيء واحد غير منفك أحدهما عن صاحبه انطوى تحت ذكر الإيمان بالله تعالى الإيمان بالرسول عليه السلام، وقيل: دلّ عليه بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿**ولم يخش إلا الله**﴾ والمؤمن يخشى المحاذير ولا يتمالك أن لا يخشاها؟ **قُلْتُ:** هي الخشية والتقوى في أبواب الدين، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف، وإذا اعترضه أمران أحدهما: حق الله والآخر: حق نفسه أن يخاف الله، فيؤثر حق الله على حق نفسه، وقيل: كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد نفي تلك الخشية عنهم ﴿**فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**﴾[4] تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لأطماعهم من الانتفاع بأعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها بأن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى اهتداؤهم دائر بين عسى ولعل، فما بال المشركين يقطعون أنهم مهتدون ونائلون عند الله الحسنى؟ وفي هذا الكلام ونحوه لطف للمؤمنين في ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى.

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾.

السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية ولا بد من مضاف محذوف تقديره: ﴿**أجعلتم**﴾ **أهل** ﴿**سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله**﴾ وتصدقه: قراءة ابن الزبير، وأبي وجزة السعدي ـ وكان من القراء ـ سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام والمعنى: إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين أعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يسوى بينهم. وجعل تسويتهم ظلمًا بعد ظلمهم بالكفر، وروي أن المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت لهم اليهود: أنتم أفضل، وقيل: إن عليًا رضي الله عنه قال للعباس: يا عم ألا تهاجرون؟ ألا تلحقون برسول الله ﷺ؟ فقال: ألست في أفضل من الهجرة، أسقي حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام. فلما نزلت قال العباس: ما أراني إلا تارك سقايتنا، فقال عليه السلام: «أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيرًا»[5]. هم ﴿**أعظم درجة عند الله**﴾ من أهل السقاية والعمارة عندكم ﴿**وأولئك هم الفائزون**﴾ لا أنتم والمختصون بالفوز دونكم. قرئ: يبشرهم بالتخفيف والتثقيل. وتنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرّف، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هي في المهاجرين خاصة[6].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾.

كان قبل فتح مكة من آمن لم يتمّ إيمانه إلا بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم فقالوا يا رسول الله: إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجاراتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا وبقينا ضائعين فنزلت فـ ﴿**هاجروا**﴾[7] فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم بعد ذلك، وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة، فنهى الله تعالى عن موالاتهم، وعن النبيّ ﷺ: «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان

---

(1) قال الزيلعي: غريب [2/57].
(2) ذكره ابن عدي في الكامل في الضعفاء (4/1470).
(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، (الحديث رقم: 2617)، وابن ماجه في كتاب: المساجد، باب: لزوم المساجد وانتظار الصلاة، (الحديث رقم: 802) والحاكم في المستدرك 1/212 وابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: فضل الصلوات الخمس (الحديث رقم: 1721).
(4) قال أحمد: وأكثرهم يقول إن عسى من الله واجبة بناء منهم = على أن استعمالها غير مصروفة للمخاطبين، والحق فيما قال الزمخشري، ولكن الخطاب مصروف إليهم، أي: فحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوّة، والعاقبة عند الله معلومة، ولله عاقبة الأمور.
(5) ذكره الواحدي في أسباب النزول.
(6) ذكره الثعلبي في تفسيره.
(7) سورة الأنفال، الآية: 72.

حتى يحبّ في الله ويبغض في الله، حتى يحبّ في الله أبعد الناس ويبغض في الله أقرب الناس إليه»[1]. وقرئ: عشيرتكم وعشيراتكم، وقرأ الحسن: وعشائركم **﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾** وعيد. عن ابن عباس هو: فتح مكة، وعن الحسن هي: عقوبة عاجلة أو آجلة، وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها كأنها تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين، فلينصف أورع الناس واتقاهم من نفسه هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرّد منها لأجله، أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدري أيّ طرفيه أطول، ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾.

مواطن الحرب مقاماتها ومواقفها[2] قال:

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق[3] منهوى

وامتناعه من الصرف؛ لأنه جمع وعلى صيغة لم يات عليها واحد، والمواطن الكثيرة وقعات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة.

فإن قُلْتَ: كيف عطف الزمان على المكان وهو **﴿يوم حنين﴾** على المواطن؟ **قُلْتُ:** معناه: وموطن يوم حنين، أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين، ويجوز أن يراد بالموطن: الوقت كمقتل الحسين، على أنّ الواجب أن يكون يوم حنين منصوبًا بفعل مضمر لا بهذا الظاهر، وموجب ذلك أنّ قوله **﴿إذ أعجبتكم﴾** بدل من **﴿يوم حنين﴾** فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح؛ لأنّ كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن ولم يكونوا كثيرًا في جميعها، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصًا به إلا إذ نصبت إذا بإضمار انكر، وحنين: واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفًا الذين حضروا فتح مكة منضمًا إليه ألفان من الطلقاء، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فيمن ضامّهم من إمداد سائر العرب فكانوا الجمّ الغفير، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، فساءت رسول الله ﷺ، وقيل: قائلها رسول الله ﷺ، وقيل: أبو بكر رضي الله عنه[4]، وذلك قوله: **﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾** فاقتتلوا قتالاً شديدًا وانكرت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة وزلّ عنهم أنّ الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة، وبقي رسول الله ﷺ وحده وهو ثابت في مركزه لا يتحلحل ليس معه إلا عمه العباس رضي الله عنه آخذًا بلجام دابته، وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه، وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق على تناهي شجاعته ورباطة جاشه ﷺ وما هي إلا من آيات النبوّة، وقال: يا رب ائتني بما وعدتني، وقال ﷺ للعباس وكان صيتًا «صيح بالناس» فنادى الأنصار فخذًا فخذًا، ثم نادى يا أصحاب الشجرة يا أصحاب البقرة فكروا عنقًا واحدًا وهم يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق، فنظر رسول الله ﷺ إلى قتال المسلمين، فقال هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ كفًا من تراب، فرماهم به، ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة» فانهزموا. قال العباس: لكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم على بغلته **﴿بما رحبت﴾** ما مصدرية والباء بمعنى: مع، أي: مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها، على أنّ الجارّ والمجرور في موضع الحال كقولك: دخلت عليه بثياب السفر أي: ملتبسًا بها لم أحلها تعني: مع ثياب السفر، والمعنى: لا تجدون موضعًا تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط الرعب فكأنها ضاقت عليكم **﴿ثم وليتم مدبرين﴾** ثم انهزمتم.

ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾.

﴿سكينته﴾ رحمته التي سكنوا بها وآمنوا **﴿وعلى المؤمنين﴾** الذين انهزموا، وقيل: هم الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ حين وقع الهرب **﴿وأنزل جنودًا﴾** يعني: الملائكة وكانوا ثمانية آلاف، وقيل: خمسة آلاف، وقيل: ستة عشر ألفًا **﴿وعذب الذين كفروا﴾** بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري **﴿ثم يتوب الله﴾** أي: يسلم بعد ذلك ناس منهم، وروي: أنّ ناسًا منهم جاؤا فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبر

---

(1) قال الزيلعي: غريب، وأخرج الطبراني في معجمه نحوه [2/61].

(2) قال أحمد: لا مانع، والله أعلم من عطف الظرفين المكاني والزماني، أحدهما على الآخر، كعطف أحد المفعولين على الآخر، والفعل واحد إذ يجوز أن تقول: ضرب زيد عمراً في المسجد، ويوم الجمعة كما تقول ضربت زيداً وعمراً، ولا يحتاج إلى إضمار فعل جديد، وغير الأوّل هذا مع أنه لا بدّ من تغاير الفعلين الواقعين بالمفعولين، في الحقيقة فإنك إذا قلت أضرب زيداً اليوم وعمراً غداً، لم يشك في أنّ الضربين متغايران، بتغاير الظرفين، ومع ذلك الفعل واحد في الصناعة، فعلى هذا يجوز في الآية، والله أعلم، بقاء كلّ واحد من الظرفين على حاله، غير مؤوّل إلى الآخر على = أنّ الزمخشري أوجب تعدّد الفعل، وتقدير ناصب لظرف الزمان غير الفعل الأوّل، وإن كانا عنده جميعاً زمانين، لعله أنّ كثرتهم لم تكن ثابتة في جميعا المواطن يريد ولو ذهبت إلى اتحاد الناصب، للزم ذلك، وهذا غير لازم ألا تراك لو قلت أضرب زيداً حين يقوم، وحين يقعد، لكان الناصب للظرفين واحداً، وهما متغايران، وإنما يمتنع عمل الفعل الواحد في ظرفي زمان مختلفين، عند عدم العطف المتوسط بينهما، والله أعلم.

(3) النيق: أرفع موضع في الجبل.

(4) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (الحديث رقم: 4588).

الناس وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا قيل: سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى، فقال: «إنّ عندي ما ترون، إنّ خير القول أصدقه، اختاروا إما ذراريكم ونساءكم، وإما أموالكم». قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن هؤلاء جاؤا مسلمين، وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئًا، فمن كان بيده شيء وطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا فليعطنا وليكن قرضًا علينا حتى نصيب شيئًا فنعطيه مكانه» قالوا: رضينا وسلمنا، فقال: «إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا» فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿النجس﴾ مصدر يقال: نجس نجسًا وقذر قذرًا ومعناه: ذوو نجس، لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن: من صافح مشركًا توضأ، وأهل المذاهب: على خلاف هذين القولين، وقرئ: نجس بكسر النون وسكون الجيم على تقدير حذف الموصوف كأنه قيل: إنما المشركون جنس نجس أو ضرب نجس، وأكثر ما جاء تابعًا لرجس وهو: تخفيف نجس نحو كبد **﴿في كبد﴾**[2] **﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾** فلا يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية **﴿بعد عامهم هذا﴾** بعد حج عامهم هذا وهو: عام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر على الموسم، وهو: مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ويدل عليه قول علي ـ كرم الله وجهه ـ حين نادى ببراءة: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم، وعند الشافعي يمنعون من المسجد الحرام خاصة، وعند مالك، يمنعون منه ومن غيره من المساجد، وعن عطاء رضي الله عنه: أنّ المراد بالمسجد الحرام: الحرم، وأن على المسلمين أن لا يمكنوهم من دخوله، ونهي المشركين أن يقربوه[3] راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منه، وقيل: المراد أن يمنعوا من تولي المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك **﴿وإن خفتم عيلة﴾** أي: فقرًا بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق والمكاسب **﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾** من عطائه أو من تفضله بوجه آخر، فأرسل السماء عليهم مدرارًا فأغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم، وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به، فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف، وقال: من أين تأكلون، فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم بالجزية، وقيل: بفتح البلاد والغنائم. وقرئ: عائلة بمعنى المصدر: كالعافية أو حالاً عائلة ومعنى قوله **﴿إن شاء﴾** الله إن أوجبت الحكمة إغناءكم وكان مصلحة لكم في دينكم **﴿إنّ الله عليم﴾** بأحوالكم **﴿حكيم﴾** لا يعطي ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ بيان للذين مع ما في حيزه، نفى عنهم الإيمان بالله؛ لأنّ اليهود مثنية، والنصارى مثلثة، وإيمانهم باليوم الآخر لأنهم فيه على خلاف ما يجب، وتحريم ما حرم الله ورسوله؛ لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة، وعن أبي روق لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، وأن يدينوا دين الحق وأن يعتقدوا دين الإسلام الذي هو الحق وما سواه الباطل، وقيل: دين الله، يقال: فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينه ومعتقده. سميت جزية؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي: يقضوه، أو لأنهم يجزون بها من منّ عليهم بالإعفاء عن القتل **﴿عن يد﴾** إما أن يراد يد المعطي[4] أو الآخذ[5] فمعناه: على إرادة يد المعطي حتى يعطوها عن يد أي: عن يد مؤاتية غير ممتنعة؛ لأنّ من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد ولذلك قالوا: أعطى بيده إذا انقاد وأصحب ألا ترى إلى قولهم: نزع يده عن الطاعة كما يقال: خلع ربقة الطاعة عن عنقه، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقدًا غير نسيئة لا مبعوثًا على يد أحد ولكن عن يد

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: فرض الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس.. (الحديث رقم: 3131).

(2) سورة البلد، الآية: 4.

(3) قال أحمد: وقد يستدل به من يقول إنّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وخصوصاً بالمناهي، فإن ظاهر الآية توجه النهي إلى المشركين، إلا أنه بعيد؛ لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهي، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه، فلا يحصل هذا المقصود، إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه، ويرشد إلى أنّ المخاطب في الحقيقة = المسلمين تصدير الكلام بخطابهم في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وتضمينه نصاً بخطابهم بقوله، وإن خفتم عيلة وكثيراً ما يتوجه النهي على من المراد خلافه، وعلى ما المراد خلافه إذا كانت، ثم ملازمه كقوله لا أرينك ههنا، ولا تموتن إلا، وأنتم مسلمون، والله أعلم.

(4) قال أحمد: فيكون كاليد في قوله عليه السلام: «لا تبيعوا الذهب»، إلى قوله: «إلا يدا بيد».

(5) قال أحمد: وهذا الوجه أملأ بالفائدة، والله أعلم.

المعطي إلى يد الآخذ، وأما على إرادة يد الآخذ فمعناه: حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية، أو عن إنعام عليهم؛ لأنّ قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة عليهم ﴿وهم صاغرون﴾ أي: تؤخذ منهم على الصغار والذل، وهو أن يأتي بها بنفسه ماشيًا غير راكب، ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس، وأن يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلبيبه، ويقال له: أدّ الجزية، وإن كان يؤديها ويزخ في قفاه، وتسقط بالإسلام عند أبي حنيفة ولا يسقط به خراج الأرض، واختلف فيمن تضرب عليه، فعند أبي حنيفة تضرب على كل كافر من ذمي ومجوسي وصابئ وحربي إلا على مشركي العرب وحدهم، روى الزهري: أنّ رسول الله ﷺ صالح عبدة الأوثان على الجزية إلا من كان من العرب[1]، وقال لأهل مكة: «هل لكم في كلمة إذا قلتموها دانت لكم بها العرب وأدت إليكم العجم الجزية»[2]. وعند الشافعي: لا تؤخذ من مشركي العجم، والمأخوذ عند أبي حنيفة في أوّل كل سنة: من الفقير الذي له كسب اثنا عشر درهمًا، ومن المتوسط في الغني ضعفها، ومن المكثر ضعف الضعف ثمانية وأربعون، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له، وعند الشافعي يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار فقيرًا كان أو غنيًا كان له كسب أو لم يكن.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿عزير ابن الله﴾ مبتدأ وخبر كقوله: ﴿المسيح ابن الله﴾ وعزير اسم أعجمي كعازر وعيزار وعزرائيل، ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه، ومن نوّن فقد جعله عربيًا، وأما قول من قال: سقوط التنوين لالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ: أحد الله، أو لأنّ الابن وقع وصفًا والخبر محذوف وهو: معبودنا، فتحمل عنه مندوحة، وهو: قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة وما هو بقول كلهم، عن ابن عباس رضي الله عنه: جاء رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان ابن أوفى وشاش بن قيس ومالك ابن الصيف فقالوا ذلك، وقيل: قاله فنحاص، وسبب هذا القول: أنّ اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عزير وهو غلام يسيح في الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم، فحفظه التوراة، فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفًا، فقالوا: ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه، والدليل على أنّ هذا القول كان فيهم أنّ الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على التكذيب.

فإن قُلْتَ: كل قول يقال بالفم، فما معنى قوله ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾؟ **قُلْتُ**: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعضده برهان فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان، وذلك أنّ القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب، وما لا معنى له مقول بالفم لا غير، والثاني: أن يراد بالقول المذهب كقولهم: قول أبي حنيفة، يريدون مذهبه وما يقول به، كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم؛ لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد ﴿يضاهون﴾ لا بدّ فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعًا، والمعنى: أنّ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم يعني: أنه كفر قديم غير مستحدث، أو يضاهي قول المشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عنه، وقيل: الضمير للنصارى أي: يضاهي قولهم ﴿المسيح ابن الله﴾ قول اليهود ﴿عزير ابن الله﴾ لأنهم أقدم منهم، وقرئ*: يضاهئون بالهمز من قولهم: امرأة ضهيأ على فعيل وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض، وهمزتها مزيدة كما في غرقى ﴿قاتلهم الله﴾ أي: هم أحقاء بأن يقال لهم هذا تعجبًا من شناعة قولهم كما يقول لقوم ركبوا شنعاء: قاتلهم الله ما أعجب فعلهم ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يصرفون عن الحق.

ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾.

اتخاذهم أربابًا أنهم أطاعوهم في الأمر بالمعاصي وتحليل ما حرّم الله وتحريم ما حلله كما تطاع الأرباب في أوامرهم ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به عباده ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾[3] ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾[4] وعن عديّ بن حاتم رضي الله عنه انتهيت إلى رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «أليسوا يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه، ويحلون ما حرّمه الله فتحلونه». قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»[5] وعن فضيل رضي الله عنه: ما أبالي أطعت مخلوقًا في معصية الخالق أو صليت لغير القبلة، وأمّا المسيح فحين جعلوه ابنا لله فقد أهلوه للعبادة ألا ترى إلى قوله: ﴿قل إن كان للرحمٰن ولد فأنا أوّل العابدين﴾[6] ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 10/326 (الحديث رقم: 19259).
(2) لم يخرجه ابن حجر ولا الزيلعي.
(3) سورة سبأ، الآية: 41.
(4) سورة مريم، الآية: 44.
(5) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة التوبة (الحديث رقم: 3095).
(6) سورة الزخرف، الآية: 81.

﴿إلهًا واحدًا﴾ أمرتهم بذلك أدلة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح عليه السلام: أنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن الإشراك به واستبعاد له، ويجوز أن يكون الضمير في وما أمروا للمتخذين أربابًا أي: وما أمر هؤلاء الذين هم عندهم أرباب إلا ليعبدوا الله ويوحدوه، فكيف يصح أن يكونوا أربابًا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم. مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوّة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾.

فإن قُلْتَ[1]: كيف جاز أبى الله إلا كذا ولا يقال: كرهت وأبغضت إلا زيدًا؟ **قُلْتُ**: قد أجرى أبي مجرى لم يرد، ألا ترى كيف قوبل ﴿يريدون أن يطفئوا﴾ بقوله: ﴿ويابى الله﴾ وكيف أوقع موقع ولا يريد الله إلا أن يتمّ نوره.

﴿ليظهره﴾ ليظهر الرسول عليه السلام ﴿على الدين كله﴾ على أهل الأديان كلهم أو ليظهر دين الحق على كل دين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾.

معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل للأخذ ألا ترى إلى قولهم: أخذ الطعام وتناوله، وإمّا على أن الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل، ومنه قوله:

إن لنا أحمرة عجافا ... يأكلن كل ليلة إكافا

يريد علفًا يشتري بثمن إكاف، ومعنى أكلهم بالباطل: أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام والتخفيف والمسامحة في الشرائع ﴿والذين يكنزون﴾ يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل وكنز الأموال والضنّ بها عن الإنفاق في سبيل الخير، ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين، ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى تغليظًا ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطي منكم طيب ماله سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم، وقيل: نسخت الزكاة آية الكنز، وقيل: هي ثابتة وإنما عني بترك الإنفاق في سبيل الله منع الزكاة، وعن النبي ﷺ: «ما أدّى زكاته فليس بكنز وإن كان باطنًا، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهرًا»[2] أو عن عمر رضي الله عنه أنّ رجلاً سأله عن أرض له باعها فقال: احرز مالك الذي أخذت، احفر له تحت فراش امرأتك، قال: أليس بكنز؟ قال: ما أدي زكاته فليس بكنز[3]، وعن ابن عمر رضي الله عنه «كل ما أدّيت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم يؤدّ زكاته فهو الذي ذكر الله تعالى وإن كان على ظهر الأرض»[4].

فإن قُلْتَ: فما تصنع بما روى سالم بن الجعد رضي الله عنه أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «تبًا للذهب تبًا للفضة قالها ثلاثًا» فقالوا له: أيّ مال نتخذ؟ قال: «لسانًا ذاكرًا وقلبًا خاشعًا وزوجة تعين أحدكم على دينه»[5] وبقوله عليه الصلاة والسلام: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها»[6]، وتوفي رجل فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: «كية» وتوفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال: «كيتان»[7] **قُلْتُ**: كان هذا قبل أن تفرض الزكاة فأمّا بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالاً من حيث أذن له فيه ويؤدّي عنه ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه، ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وعبيد الله رضي الله عنهم يقتنون الأموال ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية؛ لأنّ الإعراض اختيار للأفضل، وإلا دخل في الورع والزهد في الدنيا والاقتناء مباح موسع لا يذمّ صاحبه ولكل شيء حدّ، وما روي عن عليّ رضي الله عنه: أربعة آلاف فما دونها نفقة فما زاد فهو

---

(1) قال أحمد: ولا يقال على هذا، إنّ الإباء عدم الإرادة، فكما صح الإيجاب بعد نفي الإرادة، فينبغي أن يصح بعدما هو في معناها مطلقاً؛ لأنا نقول لوجود حرف النفي، أثر في تصحيح مجيء حرف الإيجاب بعد، فلا يلزم ذلك، والله أعلم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي (الحديث رقم: 1564).

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 4/157، (الحديث رقم: 7141).

(4) الحديث تقدم.

(5) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة (الحديث رقم: 3094) وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: أفضل = النساء، (الحديث رقم: 1856)، وأحمد في المسند 5/282، وأبو نعيم في الحلية 1/ 182ـ 183.

(6) رواه البخاري في تاريخه، والطبري وابن مردويه، الزيلعي [2/ 72].

(7) رواه أحمد في مسنده 5/252، وابن أبي شيبة في مصنفه في الكتاب (9)، باب: (177) (الحديث رقم: 2)، وأبو يعلى (الحديث رقم: 4997)، وأخرجه ابن حبان عن ابن مسعود في كتاب: الزكاة، (الحديث رقم: 3263).

كنز[1]. كلام في الأفضل.

فإن قُلْتَ: لم قيل: ﴿ولا ينفقونها﴾ وقد ذكر شيئان؟ **قُلْتُ:** ذهابًا بالضمير إلى المعنى دون اللفظ؛ لأنّ كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو كقوله: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾[2] وقيل: ذهب به إلى الكنوز، وقيل: إلى الأموال، وقيل: معناه ولا ينفقونها والذهب كما أن معنى قوله:

فإني وقيار بها لغريب

وقيار كذلك.

فإن قُلْتَ: لم خصا بالذكر من بين سائر الأموال؟ **قُلْتُ:** لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء ولا يكنزهما إلا من فضلا عن حاجته، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعدم سائر أجناس المال، فكان ذكر كنزهما دليلاً على ما سواهما.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿يحمى عليها﴾[3] وهلا قيل تحمى من قولك: حمى الميسم وأحميته، ولا تقول أحميت على الحديد؟ **قُلْتُ:** معناه: أن النار تحمى عليها أي: توقد ذات حمى وحرّ شديد من قوله ﴿نار حامية﴾[4] ولو قيل: يوم تحمى لم يعط هذا المعنى.

فإن قُلْتَ: فإذا كان الإحماء للنار فلم ذكر الفعل؟ **قُلْتُ:** لأنه مسند إلى الجار والمجرور، أصله يوم تحمى النار عليها، فلما حذفت النار قيل: يحمى عليها لانتقال الإسناد عن النار إلى عليها، كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير فإن لم تذكر القصة قلت: رفع إلى الأمير، وعن ابن عامر أنه قرأ: تحمى بالتاء. وقرأ أبو حيوة: فيكوى بالياء.

فإن قُلْتَ: لم خصت هذه الأعضاء **قُلْتُ:** لأنهم لم يطلبوا بأموالهم حيث لم ينفقوها في سبيل الله إلا الأغراض الدنيوية من وجاهة عند الناس وتقدم، وأن يكون ماء وجوههم مصونًا عندهم، يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحتشمون، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم، لا يخطرون ببالهم قول رسول الله ﷺ: «ذهب أهل الدثور بالأجور»[5]، وقيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم، وقيل: معناه يكوون على الجهات الأربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم ﴿هذا ما كنزتم﴾ على إرادة القول وقوله: ﴿لأنفسكم﴾ أي كنزتموه لتنتفع به نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها، وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعذب، هو توبيخ لهم ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ وقرئ: تكنزون بضم النون أي: وبال المال الذي كنتم تكنزونه، أو وبال كونكم كانزين.

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿في كتاب الله﴾ فيما أثبته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصوابًا وقيل: في اللوح ﴿أربعة حرم﴾ ثلاثة سرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد وهو رجب، ومنه قوله عليه السلام في خطبته في حجة الوداع: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم: ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» والمعنى رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه وعاد الحج في ذي الحجة وبطل النسيء الذي كان في الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبي بكر رضي الله عنه قبلها في ذي القعدة ﴿ذلك الدين القيم﴾ يعني: أن تحريم الأشهر الأربعة هو: الدين المستقيم دين إبراهيم وإسمٰعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويحرمون القتال فيها حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه، وسموا رجبًا الأصم ومنصل الأسنة حتى أحدثت النسيء فغيروا ﴿فلا تظلموا فيهن﴾ في الحرم ﴿أنفسكم﴾ أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً، وعن عطاء: تالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا وما نسخت. وعن عطاء الخراساني ـ رضي الله عنه ـ: أحلت القتال في الأشهر الحرم ﴿براءة من الله ورسوله﴾[6] وقيل: معناه لا تأثموا فيهن بيانًا لعظم حرمتهن كما عظم أشهر الحج بقوله تعالى: ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق﴾[7] الآية، وإن كان نلك محرّمًا في سائر الشهور ﴿كافة﴾ حال من الفاعل أو المفعول ﴿مع المتقين﴾ ناصر لهم حثهم على التقوى بضمان النصر لأهلها.

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾.

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 4/109 (الحديث رقم: 7150).

(2) سورة الحجرات، الآية: 9.

(3) قال أحمد: وفي هذا الفصل دقائق إعراب يشوب حسنها إغراب، والله الموفق.

(4) سورة القارعة، الآية: 11.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة، (الحديث رقم: 843)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة (الحديث رقم: 1346).

(6) سورة التوبة، الآية: 1.

(7) سورة البقرة، الآية: 197.

والنسيء تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهرًا آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من شق شهور العام أربعة أشهر وذلك قوله تعالى: **﴿ليواطؤا عدة ما حرم الله﴾** أي: ليوافقوا العدّة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو: أحد الواجبين، وربما زادوا في عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ولذلك قال عز وعلا: **﴿إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا﴾**[1] يعني من غير زيادة زادوها.

والضمير في يحلونه ويحرمونه للنسيء أي: إذا أحلوا شهرًا من الأشهر الحرم عامًا رجعوا فحرموه في العام القابل. يروى: أنه حدث ذلك في كنانة؛ لأنهم كانوا فقراء محاويج إلى الغارة، وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعًا في الجاهلية وكان يقوم على جمل في الموسم فيقول بأعلى صوته: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرّم فأحلوه، ثم يقوم في القابل فيقول إن آلهتكم قد حرّمت عليكم المحرّم فحرّموه.

جعل النسيء زيادة في الكفر؛ لأنّ الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفرًا فزادتهم رجسًا إلى رجسهم كما أنّ المؤمن إذا أحدث الطاعة ازداد إيمانًا **﴿فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون﴾**[2] وقرئ: يضلّ على البناء للمفعول ويضل بفتح الياء والضاد ويضلّ على أن الفعل لله عزّ وجل. وقرأ الزهري: ليوطئوا بالتشديد.

والنسيء مصدر نسأه إذا أخره يقال: نسأه نسأ ونساء ونسيأ كقولك: مسه مسًا ومساسًا ومسيسًا، وقرئ: بهنّ جميعًا، وقرئ النسي بوزن الندى والنسى بوزن النهى وهما تخفيف النسيء والنسء.

فإن قُلتَ: ما معنى قوله **﴿فيحلوا ما حرّم الله﴾**؟ **قُلتُ:** معناه: فيحلوا بمواطأة العدّة وحدها من غير تخصيص ما حرّم الله من القتال، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها **﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾** خذلهم الله فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة **﴿والله لا يهدي﴾** أي: لا يلطف بهم بل يخذلهم وقرئ: زين لهم سوء أعمالهم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿اثاقلتم﴾ تثاقلتم، وبه قرأ الأعمش أي: تباطأتم وتقاعستم وضمن معنى الميل والاخلاد فعدي بإلى، والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ونحوه. **﴿أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾**[3] وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم، وقرئ: أثاقلتم على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ.

فإن قُلتَ: فما العامل في إذا وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه؟ **قُلتُ:** ما دل عليه قوله: **﴿اثاقلتم﴾** أو ما في **﴿مالكم﴾** من معنى الفعل، كأنه قيل: ما تصنعون إذا قيل لكم، كما تعمله في الحال إذا قلت: مالك قائمًا؟ وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشقّ عليهم، وقيل: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوة إلا ورى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك ليستعدّ الناس تمام العدّة[4] **﴿من الآخرة﴾** أي: بدل الآخرة كقوله: **﴿لجعلنا منكم ملائكة﴾**[5] **﴿في الآخرة﴾** في جنب الآخرة.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إلا تنفروا﴾[6] سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قومًا آخرين خيرًا منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصرة دينه لا يقدح تثاقلهم فيها شيئًا، وقيل: الضمير للرسول أي: ولا تضروه؛ لأنّ الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره، ووعد الله كائن لا محالة، وقيل: يريد بقوله: **﴿قومًا غيركم﴾** أهل اليمن، وقيل: أبناء فارس، والظاهر مستغن عن التخصيص.

فإن قُلتَ: كيف يكون قوله: **﴿فقد نصره الله﴾** جوابًا للشرط؟ **قُلتُ:** فيه وجهان: أحدهما: إلا تنصروه فسينصر من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد فدلّ بقوله: **﴿فقد نصره الله﴾** على أنه ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت. والثاني: أنه أوجب له النصرة وجعله منصورًا في ذلك الوقت فلن يخذل من بعده.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 36.

(2) سورة التوبة، الآية: 124.

(3) سورة الأعراف، الآية: 176.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب من أراد غزوة نووي بغيرها، (الحديث رقم: 2948) ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة= كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 6949).

(5) سورة الزخرف، الآية: 60.

(6) قال أحمد: ويقرب إعادة الضمير إلى الرسول، أن الضمير في قوله إلا تنصروه عقيب، ذلك عائد إليه اتفاقاً، والله أعلم.

وأسند الإخراج إلى الكفار كما أسنده إليهم في قوله: ﴿من قريتك التي أخرجتك﴾[1] لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له في الخروج فكأنهم أخرجوه ﴿ثاني اثنين﴾ أحد اثنين كقوله: ﴿ثالث ثلاثة﴾[2] وهما: رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. يروى أنّ جبريل عليه السلام لما أمره بالخروج قال: من يخرج معي؟ قال: أبو بكر[3]. وانتصابه على الحال، وقرئ ثاني اثنين بالسكون و ﴿إذ هما﴾ بدل من إذ أخرجه. والغار ثقب في أعلى ثور وهو: جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثًا ﴿إذ يقول﴾ بدل ثان، قيل: طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[4]، وقيل: لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت فنسجت عليه[5] وقال رسول الله ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم» فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله بأبصارهم عنه[6]، وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه فقد كفر لإنكار كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة ﴿سكينته﴾ ما ألقى في قلبه من الأمنة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه. والجنود والملائكة يوم بدر والأحزاب وحنين. وكلمة الذين كفروا دعوتهم إلى الكفر ﴿وكلمة الله﴾ دعوته إلى الإسلام وقرئ: كلمة الله بالنصب والرفع أوجه و ﴿هي﴾ فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلو وأنها المختصة به دون سائر الكلم.

انفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾.

﴿خفافًا وثقالاً﴾ خفافًا في النفور لنشاطكم له وثقالاً عنه لمشقته عليكم، أو خفافًا لقلة عيالكم وأنيالكم وثقالاً لكثرتها، أو خفافًا من السلاح وثقالاً منه، أو ركبانًا ومشاء، أو شبابًا وشيوخًا، أو مهازيل وسمانًا، أو صحاحًا ومراضًا، وعن ابن أمّ مكتوم أنه قال لرسول الله ﷺ: عليّ أن أنفر؟ قال: «نعم» حتى نزل قوله[7]: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾[8] وعن ابن عباس: نسخت بقوله: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾[9] وعن صفوان بن عمرو: كنت واليًا على حمص فلقيت شيخًا كبيرًا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك، فرفع حاجبيه وقال: يابن أخي استنفرنا الله خفافًا وثقالاً إلا أنه من يحبه الله يبتله. وعن الزهري خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفرنا الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة.

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾.

العرض: ما عرض لك من منافع الدنيا يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر أي: لو كان ما دعوا إليه غنمًا قريبًا سهل المنال ﴿وسفرًا قاصدًا﴾ وسطًا مقاربًا ﴿الشقة﴾ المسافة الشاطة الشاقة، وقرأ عيسى بن عمر: بعدت عليهم الشقة بكسر العين والشين ومنه قوله:

يقولون لا تبعد وهم يدفنونه ... ولا بعد إلا ما تواري الصفائح

﴿بالله﴾ متعلق بسيحلفون، أو هو من جملة كلامهم والقول مراد في الوجهين. أي: سيحلفون يعني: المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أو سيحلفون بالله يقولون: لو استطعنا، وقوله: ﴿لخرجنا﴾ سدّ مسد جوابي القسم، ولو جميعًا، والإخبار بما سوف يكون بعد القفول من حلفهم واعتذارهم، وقد كان من جملة المعجزات ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدّة، أو استطاعة الأبدان كانهم تمارضوا، وقرئ: لو استطعنا بضم الواو تشبيهًا لها بواو الجمع في قوله: ﴿فتمنوا الموت﴾[10] ﴿يهلكون أنفسهم﴾ إما أن يكون بدلاً من سيحلفون أو حالاً بمعنى: مهلكين، والمعنى أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب وما يحلفون عليه من التخلف، ويحتمل أن يكون حالاً من قوله: ﴿لخرجنا﴾ أي لخرجنا معكم وإن أهلكنا أنفسنا وألقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك الشقة، وجاء به على لفظ الغائب؛ لأنه مخبر عنهم، ألا ترى أنه لو قيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا لكان سديدًا، يقال: حلف بالله ليفعلنّ ولأفعلنّ فالغيبة على حكم الإخبار والتكلم على الحكاية.

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾.

﴿عفا الله عنك﴾[11] كناية عن الجناية؛ لأنّ العفو رادف

---

(1) سورة محمد، الآية: 13.
(2) سورة المائدة، الآية: 73.
(3) لم يخرجه ابن حجر والزيلعي أيضًا.
(4) رواه البخاري في صحيحه كتاب: التفسير من سورة براءة، باب: قوله عز وجل: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾ (الحديث رقم: 4663).
(5) أخرجه البزار في كشف الأستار، كتاب: الهجرة والمغازي، باب: الهجرة إلى المدينة، (الحديث رقم: 1741).
(6) قال الزيلعي: لم أجده [77/2].
(7) (لم يخرجه الزيلعي، أو ابن حجر).
(8) سورة النور، الآية: 61.
(9) سورة التوبة، الآية: 91.
(10) سورة البقرة، الآية: 94.
(11) قال أحمد رحمه الله: ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير، وهو بين أحد أمرين، إما أن لا يكون هو المراد، وإما أن يكون هو المراد، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب، =

لها ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت و ﴿لم أذنت لهم﴾ بيان لما كنى عنه بالعفو، ومعناه: ما لك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأنذوك واعتلوا لك بعللهم، وهلا استأنيت بالإذن؟ ﴿حتى يتبين لك﴾ من صدق في عذره ممن كذب فيه، وقيل: شيآن فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى، فعاتبه الله تعالى.

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾.

﴿لا يستأنك﴾[1] ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان الخلص من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي أبدًا ولنجاهدنّ أبدًا معه بأموالنا وأنفسنا ومعنى ﴿أن يجاهدوا﴾ في أن يجاهدوا أو كراهة أن يجاهدوا ﴿والله عليم بالمتقين﴾ شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين وعدة لهم بأجزل الثواب.

إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾.

﴿إنما يستأذنك﴾ يعني: المنافقين وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً ﴿يترددون﴾ عبارة عن التحير؛ لأنّ التردّد ديدن المتحير كما أنّ الثبات والاستقرار ديدن المستبصر.

وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾.

قرئ: عدّه بمعنى: عدته فعل بالعدّة ما فعل بالعدة من قال:

وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

من حذف تاء التأنيث وتعويض المضاف إليه منها، وقرئ: عدّة بكسر العين بغير إضافة وعدّه بإضافة.

فإن قُلْتَ: كيف موقع حرف الاستدراك **قُلْتُ:** لما كان قوله: ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ معطيًا معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو قيل: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ كأنه قيل: ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم كما تقول: ما أحسن إلى زيد ولكن أساء إليّ ﴿فثبطهم﴾ فكسلهم وخذلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث ﴿وقيل اقعدوا﴾ جعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمرًا بالقعود، وقيل: هو قول الشيطان بالوسوسة، وقيل: هو قولهم لأنفسهم، وقيل: هو إذن رسول الله ﷺ لهم في القعود.

فإن قُلْتَ[2]: كيف جاز أن يوقع الله تعالى في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة؟ وتعالى الله عن إلهام القبيح، **قُلْتُ:** خروجهم كان مفسدة لقوله: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا﴾ فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسنًا ومصلحة.

فإن قُلْتَ: فلم خطأ رسول الله ﷺ في الإذن لهم فيما هو مصلحة؟ **قُلْتُ:** لأنّ إذن رسول الله ﷺ لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا علمها إلا بعد القفول بإعلام الله تعالى، ولكن لأنهم استأذنوه في ذلك واعتذروا إليه فكان عليه أن يتفحص عن كنه معاذيرهم ولا يتجوّز في قبولها فمن ثم أتاه العتاب، ويجوز أن يكون في ترك رسول الله ﷺ الإذن لهم مع تثبيط الله إياهم مصلحة أخرى فبإذنه لهم فقدت تلك المصلحة، وذلك أنهم إذا ثبطهم الله فلم ينبعثوا وكان قعودهم بغير إذن من رسول الله ﷺ قامت عليهم الحجة ولم تبق لهم معذرة، ولقد تدارك الله ذلك حيث هتك أستارهم وكشف أسرارهم وشهد عليهم بالنفاق وأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

فإن قُلْتَ[3]: ما معنى قوله: ﴿مع القاعدين﴾؟ **قُلْتُ:** هو ذمّ لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين

= وخصوصاً في حق المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالزمخشري على كلا التقديرين ذاهل، عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام، ولقد أحسن من قال في هذه الآية، أنّ من لطف الله تعالى بنبيه، أن بداه بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداء لم أذنت لهم لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام.

(1) قال أحمد: وهذا الأدب يجب أن يقتفي مطلقاً، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه في أن يسدي إليه معروفاً، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه في أن يقدم إليه طعاماً، فإنّ الاستئذان في أمثال هذه المواطن أمارة التكلف، والتكره، وصلوات الله على خليله، وسلامه لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيأ من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم، فلذلك مدحه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بهذه الخلة الجميلة، والآداب الجليل، فقال تعالى: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾، أي: ذهب على خفاء منهم كيلا يشعروا به، والمهتم يأمر ضيفه بمرأى منه ربما يعد، =

= كالمستأذن له في الضيافة، فهذا من الآداب التي ينبغي أن يتمسك بها ذوو المروءة، وأولوا الفتوة، وأشدّ من الاستئذان في الخروج للجهاد، ونصرة الدين، والتثاقل عن المبادرة إليه بعد الحض عليه، والمناداة وأسوأ أحوال المتثاقل، وقد دعى الناس إلى الغزاة أن يكون متمسكاً بشعبة من النفاق نعوذ بالله من التعرّض لسخطه.

(2) قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه مبني على قاعدتين فاسدتين إيجاب مراعاة المصالح على الله تعالى، والتحسين، والتقبيح، وقد تكرّر بطلان ذلك، فاحذره، واعلم أنّ معتقد السنة أنّ الله تعالى ألقى كراهة الخروج في قلوبهم؛ لأنه أراد شقاوتهم، وانضاف إلى ذلك إرادة راحة المخلصين من مرافقتهم، إذ الأمر ليس شرطاً في نفوذ المشيئة، والله الموفق.

(3) قال أحمد: وهذا من تنبيهاته الحسنة، ونزيده بسطاً، فنقول لو قيل اقعدوا مقتصراً عليه لم يفد سوى أمرهم بالقعود، وكذلك كونوا مع القاعدين، ولا تحصل هذه الفائدة مع إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف، والتقاعد الموسومين بهذه=

شأنهم القعود والجثوم في البيوت وهم: القاعدون والخالفون والخوالف ويبينه قوله تعالى: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾[1].

﴿إلا خبالاً﴾ ليس من الاستثناء المنقطع في شيء كما يقولون؛ لأنّ الاستثناء المنقطع هو: أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقولك: ما زادوكم خيرًا إلا خبالاً، والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء فكان استثناء متصلاً؛ لأنّ الخبال بعض أعمّ العام كأنه قيل: ما زادوكم شيئًا إلا خبالاً، والخبال: الفساد والشرّ ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم وإفساد ذات البين، يقال: وضع البيعر وضعًا إذا أسرع وأوضعته أنا، والمعنى: ولأوضع ركائبهم بينكم، والمراد الإسراع بالنمائم؛ لأنّ الراكب أسرع من الماشي، وقرأ ابن الزبير رضي الله عنه: ولأرقصوا من رقصت الناقة رقصًا إذا أسرعت وأرفصتها قال:

والراقصات إلى منى فالغبغب

وقرئ*: ولأوفضوا.

فإن قُلْتَ: كيف خطّ في المصحف ولا أوضعوا بزيادة ألف؟ قُلْتُ: كانت الفتحة تكتب ألفًا قبل الخط العربي، والخط العربي اخترع قريبًا من نزول القرآن وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفًا وفتحتها ألفًا أخرى ونحو: ﴿أو لأذبحنه﴾[2] ﴿يبغونكم الفتنة﴾ يحاولون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي: نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم.

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿لقد ابتغوا الفتنة﴾ أي: العنت ونصب الغوائل والسعي في تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك كما فعل عبد الله ابن أبيّ يوم أحد حين انصرف بمن معه، وعن ابن جريج رضي الله عنه: وقفوا لرسول الله ﷺ على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به ﴿من قبل﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿وقلبوا لك امور﴾ ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء في إبطال أمرك، وقرئ*: وقلبوا بالتخفيف ﴿حتى جاء الحق﴾ وهو تأييدك ونصرك ﴿وظهر أمر الله﴾ وغلب دينه وعلا شرعه.

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿ائذن لي﴾ في القعود ﴿ولا تفتني﴾ ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم بأن لا تأذن لي، فإني إن تخلفت بغير إذنك أثمت، وقيل: ولا تلقني في الهلكة فإني إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي، وقيل: قال الجد بن قيس: قد علمت الأنصار أني مستهتر بالنساء فلا تفتني ببنات الأصفر يعني: نساء الروم، ولكني أعينك بمالي فاتركني، وقرئ*: ولا تفتني من أفتنه ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي: إنّ الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي: فتنة التخلف، وفي مصحف أبيّ رضي الله عنه سقط؛ لأنّ من موحد اللفظ مجموع المعنى ﴿لمحيطة بالكافرين﴾ يعني: أنها تحيط بهم يوم القيامة، أو هي محيطة بهم الآن؛ لأنّ أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها.

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿إن تصبك﴾ في بعض الغزوات ﴿حسنة﴾ ظفر وغنيمة ﴿تسؤهم وإن تصبك مصيبة﴾ نكبة وشدّة في بعضها نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك و ﴿يقولوا قد أخذنا أمرنا﴾ أي: أمرنا الذي نحن متسمون به من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم ﴿من قبل﴾ من قبل ما وقع. وتولوا عن مقام التحدث بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم ﴿وهم فرحون﴾ مسرورون، وقيل: تولوا أعرضوا عن رسول الله ﷺ.

قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ۚ هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾.

قرأ: ابن مسعود رضي الله عنه: قل هل يصيبنا، وقرأ طلحة رضي الله عنه: هل يصيبنا بتشديد الياء ووجهه أن يكون يفيعل لا يفعل لأنه من بنات الواو، كقولهم: الصواب وصاب السهم يصوب ومصاوب في جمع مصيبة فحق يفعل منه يصوب، ألا ترى إلى قولهم صوب رأيه إلا أن يكون من لغة من يقول: صاب السهم يصيب، ومن قوله: أسهمي الصائبات والصيب، واللام في قوله: ﴿إلا ما كتب الله لنا﴾ مفيدة معنى الاختصاص كأنه قيل: لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة، ألا ترى إلى قوله: ﴿هو مولانا﴾ أي: الذي يتولانا ونتولاه ﴿ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم﴾[3] ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله فليفعلوا ما هو حقهم.

= السمة، إلا من عبارة الآية، ولعن الله فرعون لقد بالغ في توعد موسى عليه السلام بقوله لأجعلنك من المسجونين، ولم يقل لأجعلنك مسجوناً لمثل هذه النكتة من المبالغة.

(1) سورة التوبة، الآية: 93.

(2) سورة النمل، الآية: 21.

(3) سورة محمد، الآية: 11.

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿إلا إحدى الحسنيين﴾ إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنى العواقب وهما: النصرة والشهادة **﴿ونحن نتربص بكم﴾** إحدى السوأتين من العواقب إمّا **﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾** وهو: قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود **﴿أو﴾** بعذاب **﴿بأيدينا﴾** وهو: القتل على الكفر **﴿فتربصوا﴾** بنا ما نكرنا من عواقبنا **﴿إنا معكم متربصون﴾** ما هو عاقبتكم فلا بدّ أن يلقى كلنا ما يتربصه لا يتجاوزه،

قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿أنفقوا﴾ يعني: في سبيل الله ووجوه البر **﴿طوعًا أو كرهًا﴾** نصب على الحال أي طائعين أو مكرهين.

فإن قُلْتَ: كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال: **﴿لن يتقبل منكم﴾**؟ **قُلْتُ:** هو أمر في معنى الخبر كقوله تبارك وتعالى **﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمٰن مدًّا﴾**[1] ومعناه: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعًا أو كرهًا، ونحوه قوله تعالى: **﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾**[2] وقوله:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة

أي: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا تلومك أسأت إلينا أم أحسنت.

فإن قُلْتَ: متى يجوز نحو هذا؟ **قُلْتُ:** إذا دلّ الكلام عليه كما جاز عكسه في قولك: رحم الله زيدًا وغفر له.

فإن قُلْتَ: لم فعل ذلك؟ **قُلْتُ:** لنكتة فيه وهي: أنّ كثيرًا كأنه يقول لعزة: امتحني لطف محلك عندي وقوّة محبتي لك وعامليني بالإساءة والإحسان وانظري هل يتفاوت حالي معك مسيئة كنت أو محسنة وفي معناه قول القائل:

أخوك الذي إن قمت بالسيف عامدًا لتضربه لم يستغشك في الودّ

وكذلك المعنى أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم، واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، وانظر هل ترى اختلافًا بين حال الاستغفار وتركه.

فإن قُلْتَ: ما الغرض في نفي التقبل، أهو ترك رسول الله ﷺ تقبله منهم وردّه عليهم ما يبذلون منه؟ أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى ذاهبًا هباء لا ثواب له؟ **قُلْتُ:** يحتمل الأمرين جميعًا وقوله: **﴿طوعًا أو كرهًا﴾** معناه: طائعين من غير إلزام من الله ورسوله، أو ملزمين، وسمى الإلزام إكراهة لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقًا عليهم كالإكراه، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم؛ لأنّ رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه أو مكرهين من جهتهم، وروي أنها نزلت في الجدّ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك، وقال لرسول الله ﷺ: هذا مالي أعينك به فاتركني **﴿إنكم﴾** تعليل لرد إنفاقهم. والمراد بالفسق التمرد والعتوّ.

وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿أنهم﴾ فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولاه. وقرئ: أن تقبل بالتاء، والياء على البناء للمفعول، ونفقاتهم ونفقتهم على الجمع والتوحيد، وقرأ السلمي أن يقبل منهم نفقاتهم على أن الفعل لله عزّ وجلّ **﴿كسالى﴾** بالضم والفتح جمع كسلان نحو سكارى وغيارى في جمع سكران وغيران، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثوابًا ولا يخشون بتركها عقابًا فهي ثقيلة عليهم كقوله تعالى: **﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾**[3] وقرأت في بعض الأخبار أنّ رسول الله ﷺ كره للمؤمن أن يقول كسلت كأنه ذهب إلى هذه الآية، فإنّ الكسل من صفات المنافقين فما ينبغي أن يسنده المؤمن إلى نفسه.

فإن قُلْتَ: الكراهية خلاف الطواعية وقد جعلهم الله تعالى طائعين في قوله: **﴿طوعًا﴾** ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون **قُلْتُ:** المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله ﷺ أو من رؤسائهم، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار لا عن رغبة واختيار.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾.

الإعجاب بالشيء أن يسرّ به سرور راض به متعجب من حسنه والمعنى: فلا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا كقوله تعالى: **﴿ولا تمدّنّ عينيك﴾**[4] فإنّ الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب بأن عرّضه للتغنم والسبي وبلاهم فيه بالآفات والمصائب، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون له على رغم أنوفهم، وأذاقهم أنواع الكلف والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم.

فإن قُلْتَ: إن صح تعليق التعذيب بإرادة الله تعالى فما بال زهوق أنفسهم **﴿وهم كارهون﴾**؟ **قُلْتُ:** المراد الاستدراج بالنعم كقوله تعالى: **﴿إنما نملي لهم ليزدادوا**

(1) سورة مريم، الآية: 75.

(2) سورة التوبة، الآية: 80.

(3) سورة البقرة، الآية: 45.

(4) سورة طه، الآية: 131.

﴿إثمًا﴾[1] كانه قيل: ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة، ﴿لمنكم﴾ لمن جملة المسلمين ﴿يفرقون﴾ يخافون القتل وما يفعل بالمشركين فيتظاهرون بالإسلام تقية.

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿ملجا﴾ مكانًا يلجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة ﴿أو مغارات﴾ أو غيرانًا، وقرئ: بضم الميم من أغار الرجل وغار إذا دخل الغور، وقيل: هو تعدية غار الشيء وأغرته أنا يعني: أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم، ويجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع بمعنى: مهارب ومفارّ ﴿أو مدخلاً﴾ أو نفقًا يندسون فيه وينحجرون وهو مفتعل من الدخول. وقرئ: مدخلاً من دخل ومدخلاً من أدخل مكانًا يدخلون فيه أنفسهم، وقرأ أبيّ بن كعب رضي الله عنه: متدخلاً، وقرئ: لو ألوا إليه لالتجؤا إليه ﴿يجمحون﴾ يسرعون إسراعًا لا يردّهم شيء من الفرس الجموح وهو: الذي إذا حمل لم يردّه اللجام، وقرأ أنس رضي الله عنه: يجمزون، فسئل فقال: يجمحون ويجمزون ويشتدّون واحد.

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿يلمزك﴾ يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن عليك، قيل: هم المؤلفة قلوبهم، وقيل: هو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فقال: اعدل يا رسول الله، فقال صلوات الله عليه وسلامه: «ويلك إن لم أعدل فمن يعدل»[2] وقيل: هو أبو الجواظ من المنافقين قال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم وهو يزعم أنه يعدل فقال رسول الله ﷺ: «لا أبا لك أما كان موسى راعيًا؟ أما كان داود راعيًا» فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام: «احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون»[3] وقرئ: يلمزك بالضم ويلمزك ويلامزك التثقيل والبناء على المفاعلة مبالغة في اللمز. ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله؛ لأنّ رسول الله ﷺ استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه. وإذا للمفاجأة أي: وإن لم يعطوا منها فاجؤا للسخط. جواب لو محذوف تقديره ولو أنهم رضوا لكان خيرًا لهم، والمعنى: ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قلّ نصيبهم وقالوا: كفانا فضل الله وصنعه وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا الله غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم ﴿إنا إلى الله﴾ في أن يغنمنا ويحولنا فضله لراغبون.

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾.

﴿إنما الصدقات للفقراء﴾[4] قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها لا تتجاوزها إلى غيرها، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم ونحوه قولك: إنما الخلافة لقريش، تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم، فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها وأن تصرف إلى بعضها وعليه مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، وعن حذيفة، وابن عباس، وغيرهما من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أنهم قالوا: في أي صنف منها وضعتها أجزأك، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين فجبرتهم بها كان أحب إليّ، وعند الشافعي رضي الله عنه: لا بد من صرفها إلى الأصناف الثمانية، وعن عكرمة رضي الله عنه: أنها تفرّق في الأصناف الثمانية، وعن الزهري أنه كتب لعمر بن عبد العزيز: تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية ﴿والعاملين عليها﴾ السعاة الذين يقبضونها ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ أشراف من العرب كان رسول الله ﷺ يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئًا منها حين كان في المسلمين قلة. و ﴿الرقاب﴾ المكاتبون يعانون منها، وقيل: الأسارى، وقيل: تبتاع الرقاب فتعتق ﴿والغارمين﴾ الذين ركبتهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب، وقيل: الذين تحملوا الحمالات فتدينوا فيها وغرموا ﴿وفي سبيل الله﴾ فقراء الغزاة والحجاج المنقطع بهم ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع عن ماله، فهو فقير حيث هو، غني حيث ماله ﴿فريضة من الله﴾ في معنى المصدر المؤكد؛ لأنّ قوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ معناه: فرض الله الصدقات لهم، وقرئ: فريضة بالرفع على تلك فريضة.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 178.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة، (الحديث رقم: 3610)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم (الحديث رقم: 2453).

(3) قال الزيلعي: غريب 2/ 78. 79.

(4) قال أحمد: وهو مذهب مالك رضي الله عنه، والقول بوجوب = صرفها إلى جميع الأصناف، حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً من إشعار اللام بالتمليك، كما ذهب إليه الشافعي لا يسعده السياق، فإن الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على أن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً، فهذا هو الغرض الذي سيقت له، فلا اقتضاء فيها لما سواه، والله أعلم.

فإن قُلْتَ[1]: لم عدل عن اللام إلى في الأربعة الأخيرة؟ **قُلْتُ**: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره؛ لأنّ في للوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصبًا، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة، أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير في قوله: ﴿وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين.

فإن قُلْتَ: فكيف وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم؟ **قُلْتُ**: دل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسمًا لأطماعهم وإشعارًا باستيجابهم الحرمان وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم وما لها، وما سلطهم على التكلم فيها ،لمن قاسمها صلوات الله عليه وسلامه.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

الأذن الرجل[2] الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع كأن جملته أذن سامعة، ونظيره قولهم: للربيئة عين. وإيذاؤهم له هو قولهم فيه ﴿هو أذن﴾ و ﴿أذن خير﴾ كقولك: رجل صدق تريد الجودة والصلاح كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نعم الأذن، ويجوز أن يريد هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك، ودلّ عليه قراءة حمزة: ورحمة بالجرّ عطفًا عليه أي: هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله. ثم فسّر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله لما قام عنده من الأدلة، ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار، وهو: رحمة لمن آمن منكم أي: أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم، ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمّة والتقصير بفطنته وشهامته وأنه من أهل سلامة القلوب والغرّة، وقيل: إنّ جماعة منهم ذمّوه صلوات الله عليه وسلامه وبلغه ذلك فاشتغلت قلوبهم فقال بعضهم: لا عليكم فإنما هو أذن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأذن ونحن نأتيه ونعتذر إليه فيسمع عذر أيضًا فيرضى، فقيل: هو أذن خير لكم، وقرئ أذن خير لكم على أن أذن خبر مبتدأ محذوف وخير كذلك أي: هو أذن هو خير لكم، يعني: إن كان كما تقولون فهو خير لكم؛ لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء دخلتكم، وقرأ نافع بتخفيف الذال.

فإن قُلْتَ: لم عدي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى وإلى المؤمنين باللام؟ **قُلْتُ**: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به فعدي بالباء، وقصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونه صادقين عنده فعدى باللام ألا ترى إلى قوله: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾[3] ما أنبأه عن الباء ونحوه: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾[4] ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾[5] ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾[6].

فإن قُلْتَ: ما وجه قراءة ابن أبي عبلة ورحمة بالنصب؟ **قُلْتُ**: هي علة معللها محذوف تقديره ورحمة لكم يأذن لكم فحذف؛ لأن قوله أذن خير لكم يدل عليه.

---

(1) قال أحمد: وثم سر آخر هو أظهر، وأقرب، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك، لما عساه يدفع إليهم، وإنما يأخذونه ملكاً، فكان دخول اللام، لائقاً بهم، وأمّا الأربعة الأواخر، فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم، ولكن في مصالح تتعلق بهم، فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون، والبائعون، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم، حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم، وإنما هم محال لهذا الصرف، والمصلحة المتعلقة به، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لارباب ديونهم تخليصاً لذممهم، لا لهم، وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك، وأما ابن السبيل، فكأنه كان مندرجاً في سبيل الله، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً، وعطفه على المجرور باللام ممكن، ولكنه على القريب منه أقرب، والله أعلم، وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً في الاستدلال، لمالك على أنّ الغرض بيان المصرف، واللام لذلك لام الملك، فيقول متعلق الجار الواقع خبراً عن الصدقات محذوف، فيتعين تقديره، فإما أن يكون= = التقدير إنما الصدقات مصروفة للفقراء، كقول مالك، أو مملوكة للفقراء، كقول الشافعي لكن الأوّل متعين؛ لأنه تقدير يكتفي به في الحرفين جميعاً يصح تعلق اللام به وفي معاً، فيصح أن تقول هذا الشيء مصروف في كذا، ولكذا بخلاف تقديره مملوكة، فإنه إنما يلتئم مع اللام، وعند الانتهاء إلى في يحتاج إلى تقدير مصروفة ليلتئم بها، فتقديره من اللام عام التعلق شامل الصحة متعين، والله الموفق.

(2) قال أحمد: لا شيء أبلغ من الردّ عليهم بهذا الوجه؛ لأنه في الأوّل إطماع لهم بالموافقة، ثم كرّ على طمعهم بالحسم، وأعقبهم في تنقسه باليأس منه، ويضاهي هذا من مستعملات الفقهاى القول بالموجب؛ لأن في أوّله إطماعاً للخصم بالتسليم، ثم بتاً للطمع على قرب، ولا شيء أقطع من الإطماع، ثم اليأس يتلوه ويعقبه، والله الموفق.

(3) سورة يوسف، الآية: 17.

(4) سورة يونس، الآية: 83.

(5) سورة الشعراء، الآية: 111.

(6) سورة طه، الآية: 71.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾.

﴿لكم ليرضوكم﴾ الخطاب للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معانيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم، فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فاحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق. وإنما وحد الضمير لانه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ﷺ فكانا في حكم مرضى واحد كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر مني، أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾.

المحادّة مفاعلة من الحدّ كالمشاقة من الشقّ **﴿فإنّ له﴾** على حذف الخبر أي: فحق أن له **﴿نار جهنم﴾** وقيل معناه: فله وأن تكرير لأن في قوله: انه تأكيدًا، ويجوز أن يكون فإن له معطوفًا على أنه على أن جواب من محذوف تقديره ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فإن له نار جهنم، وقرئ*: ألم تعلموا بالتاء.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾.

كانوا يستهزؤن بالإسلام وأهله، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله لوددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة وأن لا ينزل فينا شيء يفضحنا. والضمير في عليهم وتنبئهم للمؤمنين وفي قلوبهم للمنافقين وصحّ ذلك؛ لأن المعنى يقول إليه، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم، ومعنى: تنبئهم بما في قلوبهم كأنها تقول لهم: في قلوبكم كيت وكيت، يعني: أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها، وقيل: معنى يحذر الأمر بالحذر أي: ليحذر المنافقون.

فإن قُلْتَ: الحذر واقع على إنزال السورة في قوله: **﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾** فما معنى قوله: **﴿مخرج ما تحذرون﴾؟ قُلْتُ:** معناه: محصل مبرز إنزال السورة أو أن الله مظهر ما كنتم تحذرونه أي: تحذرون إظهاره من نفاقكم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾.

بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك فقال: احبسوا على الركب، فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا؟ فقالوا: يا نبي الله، لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر[1] **﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن﴾** لم يعبأ باعتذارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود منهم حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته.

لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾.

﴿لا تعتذروا﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم **﴿قد كفرتم﴾** قد ظهر كفركم باستهزائكم **﴿بعد إيمانكم﴾** بعد إظهاركم الإيمان **﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾** بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق **﴿نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين﴾** مصرين على النفاق غير تائبين منه، أو إن نعف عن طائفة منكم لم يؤذوا رسول الله ﷺ ولم يستهزؤا فلم نعذبهم في العاجل نعذب في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذين لرسول الله ﷺ مستهزئين. وقرأ مجاهد: إن تعف عن طائفة على البناء للمفعول مع التأنيث، والوجه التذكير؛ لأن المسند إليه الظرف كما تقول: سير بالدابة، ولا تقول: سيرت بالدابة، ولكنه ذهب إلى المعنى كانه قيل: إن ترحم طائفة فانث لذلك وهو غريب والجيد قراءة العامّة؛ إن يعف عن طائفة بالتذكير وتعذب طائفة بالتأنيث. وقرئ*: إن يعف عن طائفة يعذب طائفة على البناء للفاعل وهو: الله عزّ وجل.

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿بعضهم من بعض﴾ أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم في قولهم: **﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾**[2] وتقرير قوله: **﴿وما هم منكم﴾** ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين **﴿يأمرون بالمنكر﴾** بالكفر والمعاصي **﴿وينهون عن المعروف﴾** عن الإيمان والطاعات **﴿ويقبضون أيديهم﴾** شحًّا بالمبار والصدقات والإنفاق في سبيل الله **﴿نسوا الله﴾** أغفلوا ذكره **﴿فنسيهم﴾** فتركهم من رحمته وفضله **﴿هم الفاسقون﴾** هم الكاملون في الفسق الذي هو: التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجرًا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول.

(2) سورة التوبة، الآية: 56.

حين بالغ في ذمهم، وإذا كره رسول الله ﷺ للمسلم أن يقول كسلت؛ لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله: ﴿كسالى﴾[1] فما ظنك بالفسق.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾.

﴿خالدين فيها﴾ مقدّرين الخلود **﴿هي حسبهم﴾** دلالة على عظم عذابها وأنه لا شيء أبلغ منه وأنه بحيث لا يزاد عليه، نعوذ بالله من سخطه وعذابه **﴿ولعنهم الله﴾** وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين، كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة المكرمين **﴿ولهم عذاب مقيم﴾** ولهم نوع من العذاب سوى الصلي بالنار مقيم دائم كعذاب النار، ويجوز أن يريد ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن، خوفًا من المسلمين وما يحذرونه أبدًا من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾.

الكاف محلها رفع على أنتم مثل الذين من قبلكم أو نصب على فعلتم مثل ما فعل الذين من قبلكم وهو: أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا ونحوه قول النمر

كاليوم مطلوبًا ولا طالبًا

بإضمار لم أر، وقوله: **﴿كانوا أشدّ منكم قوّة﴾** تفسير لتشبيههم بهم وتمثيل فعلهم بفعلهم. والخلاق: النصيب وهو: ما خلق للإنسان أي: قدر من خير. كما قيل له: قسم؛ لأنه قسم ونصب؛ لأنه نصب أي أثبت. والخوض: الدخول في الباطل واللهو **﴿كالذي خاضوا﴾** كالفوج الذي خاضوا وكالخوض الذي خاضوه.

فإن قلتَ: أي فائدة في قوله: **﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾**؟ وقوله: **﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾**؟ مغن عنه كما أغنى قوله: **﴿كالذي خاضوا﴾** عن أن يقال وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا؟ **قلتُ:** فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة، وإن يخسس أمر الاستمتاع ويهجن أمر الراضي به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل فعله، وأما **﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾** فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن باستناده إليه عن تلك التقدمة **﴿حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾** نقيض قوله: **﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾**[2].

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿وأصحاب مدين﴾ وأهل مدين وهم: قوم شعيب **﴿والمؤتفكات﴾** مدائن قوم لوط، وقيل: قريات قوم لوط وهود وصالح، وائتفاكهنّ: انقلاب أحوالهنّ عن الخير إلى الشر **﴿فما كان الله ليظلمهم﴾** فما صحّ منه أن يظلمهم، وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح، وأن يعاقبهم بغير جرم، ولكن ظلموا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه.

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾.

﴿بعضهم أولياء بعض﴾ في مقابلة قوله في المنافقين: ﴿بعضهم من بعض﴾[3] **﴿سيرحمهم الله﴾** السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد في قولك: سانتقم منك يومًا تعني: أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك، ونحوه: ﴿سيجعل لهم الرحمٰن ودًّا﴾[4] ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾[5] ﴿سوف يؤتيهم أجورهم﴾[6] **﴿عزيز﴾** غالب على كل شيء قادر عليه فهو يقدر على الثواب والعقاب **﴿حكيم﴾** واضع كلاً موضعه على حسب الاستحقاق.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾.

﴿ومساكن طيبة﴾ عن الحسن: قصورًا من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد. و **﴿عدن﴾** علم بدليل قوله: ﴿جنات عدن التي وعد الرحمٰن﴾[7] ويدل عليه ما روى أبو الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها

---

(1) سورة التوبة، الآية: 54.
(2) سورة العنكبوت، الآية: 27.
(3) سورة التوبة، الآية: 67.
(4) سورة مريم، الآية: 96.
(5) سورة الضحى، الآية: 5.
(6) سورة النساء، الآية: 152.
(7) سورة مريم، الآية: 61.

غير ثلاثة: النبيون والصدّيقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك»[1] وقيل: هي مدينة في الجنة، وقيل: نهر جناته على حافاته ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله؛ لأنّ رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأنّ العبد إذا علم أنّ مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطته تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت، وسمعت بعض أولي الهمة البعيدة والنفس المرّة من مشايخنا يقول: لا نطمح عيني ولا تنازع نفسي إلى شيء مما وعد الله في دار الكرامة كما تطمح وتنازع إلى رضاه عني وأن أحشر في زمرة المهديين المرضيين عنده ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما وعد الله أو إلى الرضوان أي: ﴿الفوز العظيم﴾ وحده دون ما يعدّه الناس فوزًا، وروي أنّ الله عزّ وجلّ يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك! فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أدخل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا[2].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾.

﴿جاهد الكفار﴾[3] بالسيف ﴿والمنافقين﴾ بالحجة ﴿واغلظ عليهم﴾ في الجهادين جميعًا ولا تحابهم، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها، عن ابن مسعود: إن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فليكفهرّ في وجهه، فإن لم يستطع فبقلبه[4]، يريد: الكراهة والبغضاء والتبرأ منه. وقد حمل الحسن جهاد المنافقين: على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها.

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ ۚ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾.

أقام رسول الله ﷺ في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم، منهم الجلاس بن سويد فقال الجلاس: والله لئن كان ما يقول محمد حقًا لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير. فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل والله إنّ محمدًا لصادق وأنت شر من الحمار، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضر فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يده فقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق[5] فنزلت ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ فقال الجلاس: يا رسول الله لقد عرض الله علي التوبة، والله لقد قلته وصدق عامر، فتاب الجلاس وحسنت توبته ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ وهو: الفتك برسول الله ﷺ، وذلك عند مرجعه من تبوك تواثق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذ اتسم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح، فالتفت فإذا قوم متلثمون فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا[6]، وقيل: همّ المنافقون بقتل عامر لردّه على الجلاس، وقيل: أرادوا أن يتوّجوا عبد الله بن أبيّ وإن لم يرض رسول الله ﷺ ﴿وما نقموا﴾ وما أنكروا وما عابوا ﴿إلا أن أغناهم الله﴾ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم، وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفًا فاستغنى ﴿فإن يتوبوا﴾ هي الآية التي تاب عندها الجلاس ﴿في الدنيا والآخرة﴾ بالقتل والنار.

❁ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾.

روي أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال ﷺ: «يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه» فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، «فدعا له» فاتخذ غنمًا فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل واديًا وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد، قال: «يا ويح ثعلبة» فبعث رسول الله ﷺ مصدّقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، وقال: ارجعا حتى أرى رأيي. فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه، «يا ويح ثعلبة» مرتين، فنزلت فجاءه ثعلبة بالصدقة فقال: «إنّ الله منعني أن أقبل منك»، فجعل التراب على رأسه، فقال: «هذا

(1) كشف الأستار، كتاب: صفة الجنة، باب: في الجنة ما لا عين رأت ولا (الحديث رقم: 3516).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (الحديث رقم: 6540) ومسلم في كتاب: الجنة باب: احلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا (الحديث رقم: 7070).

(3) قال أحمد: والحمد لله الذي أنطقه بالحجة لنا في إغلاظ عليه أحياناً، والله الموفق.

(4) ذكره الطبري في تفسيره.

(5) رواه عبد الرزاق في مصنفه 10/46 (الحديث رقم: 18303).

(6) رواه أحمد في مسنده 5/453.

عملك قد أمرتك فلم تطعني» فقبض رسول الله ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها، وجاء بها إلى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان رضي الله عنه[1]. وقرئ: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ ولنكوننَّ﴾ بالنون الخفيفة فيهما ﴿من الصالحين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد الحج.

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾.

﴿فاعقبهم﴾ عن الحسن وقتادة رضي الله عنهما أنّ الضمير للبخل يعني: فأورثهم البخل ﴿نفاقًا﴾ متمكنًا ﴿في قلوبهم﴾؛ لأنه كان سببًا فيه وداعيًا إليه، والظاهر أن الضمير لله عزّ وجلّ والمعنى: فخذلهم حتى نافقوا وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدّق والصلاح وكونهم كاذبين، ومنه: جعل خلف الوعد ثلث النفاق. وقرئ: يكذبون بالتشديد وألم تعلموا بالتاء عن عليّ رضي الله عنه. ﴿سرّهم ونجواهم﴾ ما أسرّوه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية، وتدبير منعها.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾.

﴿الذين يلمزون﴾ محله النصب أو الرفع على الذمّ ويجوز أن يكون في محل الجرّ بدلاً من الضمير في سرهم ونجواهم وقرئ يلمزون بالضم ﴿المطوّعين﴾ المتطوّعين المتبرعين. روي أنّ رسول الله ﷺ حثّ على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب، وقيل: بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت أربعة لعيالي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت». فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفًا[2]. وتصدّق عاصم بن عديّ بمائة وسق من تمر. وجاء أبو عقيل الأنصاري رضي الله عنه بصاع من تمر فقال: بت ليلتي أجرّ بالجرير على صاعين فتركت صاعًا لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات، فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت ﴿إلا جهدهم﴾ إلا طاقتهم، قرئ بالفتح والضم ﴿سخر الله منهم﴾ كقوله: ﴿الله يستهزئ بهم﴾[3] في أنه خبر غير دعاء، ألا ترى إلى قوله ﴿ولهم عذاب أليم﴾ سأل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ رسول الله ﷺ وكان رجلاً صالحًا: أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل، فنزلت، فقال رسول الله ﷺ: إنّ الله قد رخّص لي فسأزيد على السبعين، فنزلت ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾[4]. وقد نكرنا[5] أن هذا الأمر في معنى الخبر كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وإن فيه معنى الشرط، ونكرنا النكتة في المجيء به على لفظ الأمر، والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

لأصبحن العاص وابن العاصي ... سبعين ألفًا عاقدي النواصي

فإن قُلْتَ[6]: كيف خفي على رسول الله ﷺ وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته والذي يفهم من نكر هذا العدد كثرة الاستغفار؟ كيف وقد تلاه بقوله: ﴿ذلك بانهم كفروا﴾ الآية، فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال: قد رخص لي ربي فسأزيد على السبعين **قُلْتُ**: لم يخف عليه ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهارًا لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾[7] وفي إظهار النبي ﷺ الرأفة والرحمة لطف لأمّته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض.

---

(1) راجع الزيلعي 2/85.

(2) كشف الأستار، كتاب: التفسير، باب: سورة براءة (الحديث رقم: 3625).

(3) سورة البقرة، الآية: 15.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الكفن في القميص الذي يكف أو لا يكف (الحديث رقم: 1269) ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (الحديث رقم: 6958).

(5) قال أحمد: وما يدعيه الزمخشري في هذا، وأمثاله من محذوف هو المقصود بالأمر، وهذا واقع موقعه، كقول كثير غرة:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة

كأنه يقول لها: امتحني محلك عندي، وقوّة محبتي لك، وعامليني بالإساءة، والإحسان، وانظري هل يتفاوت حالي معك مسيئة، أو = محسنة، وكذلك معنى الآية ﴿استغفر لهم، أو لا تستغفر لهم﴾ وانظر هل يغفر لهم في حالتي الاستغفار، وتركه، وهل يتفاوت الحالان أولاً، قال أحمد: وقد ورد بصيغة الخبر في الآية الأخرى في قوله تعالى سواء عليهم أستغفرت لهم، أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم.

(6) قال أحمد: وقد أنكر القاضي رضي الله عنه حديث الاستغفار، ولم يصححه، وتغالى قم في قبوله، حتى أنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة، وبنوه على أنه عليه السلام، فهم من تحديد نفي الغفران بالسبعين ثبوت الغفران بالزائد عليه، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم.

(7) سورة إبراهيم، الآية: 36.

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾.

﴿المخلفون﴾ الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين فأذن لهم وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان **﴿بمقعدهم﴾** بقعودهم عن الغزو **﴿خلاف رسول الله﴾** خلفه يقال: أقام خلاف الحي بمعنى: بعدهم ظعنوا ولم يظعن معهم، وتشهد له قراءة أبي حيوة خلف رسول الله، وقيل: هو بمعنى المخالفة؛ لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض، وانتصابه على أنه مفعول له، أو حال أي قعدوا لمخالفته، أو مخالفين له **﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾** تعريض بالمؤمنين وبتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض، وكره ذلك المنافقون، وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان **﴿قل نار جهنم أشد حرًا﴾** استجهال لهم؛ لأنّ من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصوّن في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل، ولبعضهم:

مسرة أحقاب تلقيت بعدها ... مساءة يوم أريها شبه الصاب

فكيف بأن تلقى مسرة ساعة ... وراء تقضيها مساءة أحقاب

معناه فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيرًا **﴿جزاء﴾** إلاّ أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره. يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم. وإنما قال **﴿إلى طائفة منهم﴾**؛ لأنّ منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف أو اعتذر بعذر صحيح، وقيل: لم يكن المخلفون كلهم منافقين فأراد بالطائفة المنافقين منهم **﴿فاستأذنوك للخروج﴾** يعني: إلى غزوة بعد غزوة تبوك و **﴿أول مرة﴾** هي: الخرجة إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم تخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق بخلاف غيرهم من المتخلفين **﴿مع الخالفين﴾** قد مرّ تفسيره، وقرأ مالك بن دينار رحمه الله مع الخلفين على قصر الخالفين.

فإن قُلْتَ: مرة نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة من المرات؟ **قُلْتُ:** أكثر اللغتين هند أكبر النساء وهي أكبرهنّ، ثم إنّ قولك هي كبرى امرأة لا تكاد تعثر عليه، ولكن هي أكبر امرأة، وأول مرة وآخر مرة، وعن قتادة ذكر لنا: أنهم كانوا اثني عشر رجلاً قيل فيهم ما قيل.

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾.

روي أنّ رسول الله ﷺ كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم، فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبيّ بعث إليه ليأتيه، فلما دخل عليه قال: «أهلكك حب اليهود» فقال: يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبني، وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده ويصلي عليه، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته فسأله عن اسمه فقال: «أنت عبد الله بن عبد الله، الحباب اسم شيطان» فلما همّ بالصلاة عليه قال له عمر: أتصلي على عدوّ الله؟[1]، فنزلت، وقيل: أراد أن يصلي عليه فجذبه جبريل[2].

فإن قُلْتَ: كيف جازت له تكرمة المنافق وتكفينه في قميصه؟ **قُلْتُ:** كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له، وذلك أنّ العباس رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ لما أخذ أسيرًا ببدر لم يجدوا له قميصًا، وكان رجلاً طوالاً، فكساه عبد الله قميصه[3] وقال له المشركون يوم الحديبية: إنا لا نأذن لمحمد ولكنا نأذن لك، فقال: لا إن لي في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فشكر رسول الله ﷺ له ذلك[4]، وإجابة له إلى مسألته إياه، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يرد سائلاً، وكان يتوفر على دواعي المروءة، ويعمل بعادات الكرام، وإكرامًا لابنه الرجل الصالح، فقد روي أنه قال له: أسألك أن تكفنه في بعض قمصانك، وأن تقوم على قبره لا يشمت به الأعداء[5]، وعلمًا بأن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان، وليكون إلباسه إياه لطفًا لغيره، فقد روي أنه قيل له: لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: «إن قميصي لن يغني عنه من الله شيئًا، وإني أؤمل من الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب»، فيروي أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ[6]، وكذلك ترحمه واستغفاره، كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف؛ لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورآه حتمًا عليه.

فإن قُلْتَ: فكيف جازت الصلاة عليه؟ **قُلْتُ:** لم يتقدم نهي

---

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) رواه أبو يعلى.

(3) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الكسوة للأسارى (الحديث رقم: 3008).

(4) الواقدي في المغازي.

(5) ذكره الطبري في تفسيره.

(6) ذكره ابن مردويه في تفسيره.

عن الصلاة عليهم وكانوا يجرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم لما في ذلك من المصلحة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما أدري ما هذه الصلاة إلا أني أعلم أنّ رسول الله ﷺ لا يخادع **﴿مات﴾** صفة لأحد وإنما قيل: مات وماتوا بلفظ الماضي والمعنى على الاستقبال على تقدير الكون والوجود؛ لأنه كائن موجود لا محالة **﴿إنهم كفروا﴾** تعليل للنهي وقد أعيد قوله **﴿ولا تعجبك﴾**؛ لأنّ تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية به لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾.

يجوز أن يراد السورة بتمامها وأن يراد بعضها في قوله: **﴿وإذا أنزلت سورة﴾** كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه، وقيل: هي براءة؛ لأنّ فيها الأمر بالإيمان والجهاد **﴿أن آمنوا﴾** هي أن المفسرة **﴿أولوا الطول﴾** ذوو الفضل والسعة من طال عليه طولاً **﴿مع القاعدين﴾** مع الذين لهم علة وعذر في التخلف **﴿فهم لا يفقهون﴾** ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاء والهلاك **﴿لكن الرسول﴾** أي: إن تخلف هؤلاء فقد نهد إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقدًا كقوله: **﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومًا﴾**[1] **﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك﴾**[2] **﴿الخيرات﴾** تتناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ، وقيل: الحور لقوله: **﴿فيهن خيرات﴾**[3].

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾.

﴿المعذرون﴾ من عذر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ وحقيقته أن يوهم أن له عذرًا فيما يفعل ولا عذر له، أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين ويجوز في العربية كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها لاتباع الميم ولكن لم تثبت بهما قراءة وهم الذين يعتذرون بالباطل كقوله: **﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾**[4] وقرئ*: المعذرون بالتخفيف وهو: الذي يجتهد في العذر ويحتشد فيه قيل: هم: أسد وغطفان قالوا: إن لنا عيالاً وإن بنا جهدًا فائذن لنا في التخلف، وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيّ على أهالينا ومواشينا فقال ﷺ: سيغنيني الله عنكم، وعن مجاهد: نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى، وعن قتادة: اعتذروا بالكذب، وقرئ*: المعذرون بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر وهذا غير صحيح؛ لأنّ التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاي والصاد في المطوّعين وأزكى وأصدق، وقيل: أريد المعتذرون بالصحة وبه فسر المعذرون والمعذرون على قراءة ابن عباس رضي الله عنه: الذين لم يفرطوا في العذر **﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾** هم: منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان، وقرأ أبيّ: كذبوا بالتشديد **﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾** من الأعراب **﴿عذاب أليم﴾** في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار.

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾.

﴿الضعفاء﴾ الهرمى والزمني. و **﴿الذين لا يجدون﴾** الفقراء قيل: هم مزينة وجهينة وبنو عذرة. والنصح لله ورسوله الإيمان بهما وطاعتهما في السر والعلن، وتوليهما والحب والبغض فيهما كل يفعل الموالي الناصح بصاحبه **﴿على المحسنين﴾** على المعذورين الناصحين، ومعنى لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم ولا طريق للعاتب عليهم.

وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾.

﴿قلت لا أجد﴾ حال من الكاف في أتوك وقد قبله مضمرة كما قيل في قوله: **﴿أو جاؤكم حصرت صدورهم﴾**[5] أي: إذا ما أتوك قائلاً لا أجد **﴿تولوا﴾** ولقد حصر الله المعذورين في التخلف الذين ليس لهم في أبدانهم استطاعة، والذين عدموا آلة الخروج، والذين سألوا المعونة فلم يجدوها، وقيل: المستحملون أبو موسى

(1) سورة الأنعام، الآية: 89.
(2) سورة فصلت، الآية: 38.
(3) سورة الرحمٰن، الآية: 70.
(4) سورة التوبة، الآية: 94.
(5) سورة النساء، الآية: 90.

الأشعري وأصحابه، وقيل: البكاؤن وهم ستة نفر من الأنصار ﴿تفيض من الدمع﴾ كقولك: تفيض دمعًا وهو أبلغ من يفيض دمعها؛ لأنّ العين جعلت كأن كلها دمع فائض، ومن للبيان كقولك: أفديك من رجل، ومحل الجار والمجرور والنصب على التمييز ﴿ألا يجدوا﴾ لئلا يجد واو محله نصب على أنه مفعول له وناصبه المفعول له الذي هو حزنًا.

فإن قُلْتَ: ﴿رضوا﴾ ما موقعه؟ **قُلْتُ:** هو استئناف كأنه قيل: ما بالهم استأننوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾ يعني: أنّ السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم.

فإن قُلْتَ: فهل يجوز أن يكون قوله: ﴿قلت لا تجد﴾ استئنافًا مثله كأنه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولوا فقيل: ما لهم تولوا باكين؟ فقيل: ﴿قلت لا تجد ما أحملكم عليه﴾ إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض؟ **قُلْتُ:** نعم، ويحسن ﴿لن نؤمن لكم﴾ علة للنهي عن الاعتذار؛ لأنّ غرض المعتذر أن يصدّق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال، وقوله: ﴿قد نبانا الله من أخباركم﴾ علة لانتفاء تصديقهم؛ لأنّ الله عزّ وجلّ إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وأحوالهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معانيرهم ﴿وسيرى الله عملكم﴾ أتتيبون أم تثبتون على كفركم ﴿ثم تردّون﴾ إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية فيجازيكم على حسب ذلك.

سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾.

﴿لتعرضوا عنهم﴾ فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم ﴿فاعرضوا عنهم﴾ فأعطوهم طلبتهم ﴿إنهم رجس﴾ تعليل لترك معاتبتهم يعني: أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم إنما يعاتب الأديم ذو البشرة والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه ليظهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار، وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿ومأواهم جهنم﴾ يعني: وكفتهم النار عتابًا وتوبيخًا فلا تتكلفوا عتابهم ﴿لترضوا عنهم﴾ أي: غرضهم في الحلف بالله طلب رضاكم لينفعهم ذلك في دنياهم ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطًا عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها، وقيل: إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم، قيل: هم جد بن قيس، ومعتب بن قشير، وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً منافقين، فقال النبي ﷺ حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم»، وقيل: جاء عبد الله بن أبي يحلف أن لا يتخلف عنه أبدًا.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾.

﴿الأعراب﴾ أهل البدو ﴿أشدّ كفرًا ونفاقًا﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة ﴿وأجدر أن لا يعلموا﴾ وأحق بجهل حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام منه قوله ﷺ: «إن الجفاء والقسوة في الفدّادين»[1] ﴿والله عليم﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر ﴿حكيم﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم مخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾.

﴿مغرمًا﴾ غرامة وخسرانًا والغرامة ما ينفقه الرجل وليس يلزمه؛ لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله عزّ وجلّ وابتغاء المثوبة عنده ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾[2] دوائر الزمان دوله وعقبه لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء معترض دعي عليهم بنحو ما دعوا به كقوله عز وجل: ﴿قالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم﴾[3] وقرئ: السوء بالضم، وهو: العذاب، كما قيل: له سيئة، والسوء بالفتح وهو: ذم الدائرة كقولك: رجل سوء في نقيض قولك: رجل صدق؛ لأن من دارت عليه ذمّ لها ﴿والله سميع﴾ لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة ﴿عليم﴾ بما يضمرون، وقيل: هم أعراب أسد وغطفان وتميم.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾.

﴿قربات﴾ مفعول ثان ليتخذ، والمعنى: أن ما ينفقه سبب لحصول القربات عند الله ﴿وصلوات الرسول﴾؛ لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر

---

(1) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قدوم الأشعريين، الحديث رقم: (4387)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه. (الحديث رقم: 179).

(2) قال أحمد: وفي آية براءة مزيد على مناسبة الدعاء، لحال المدعو = عليهم، ولقولهم، وذلك أن الذي نسب إليهم تربص الدوائر مطلقاً، والذي دعي عليهم به دائرة السوء على التقييد بأسوأ الدوائر، لا على الإطلاق، والله الموفق.

(3) سورة المائدة، الآية: 64.

لهم كقوله: «اللهم صلي على آل أبي أوفى»[1] وقال تعالى: ﴿ووصل عليهم﴾[2] فلما كان ما ينفق سببًا لذلك قيل: يتخذ ما ينفق قرابات وصلوات ﴿ألا إنها﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه، وكذلك ﴿سيدخلهم﴾ وما في السين من تحقيق الوعد وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة[3] منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها. وقرئ: قربة بضم الراء، وقيل: هم عبد الله ونو البجادين ورهطه.

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾.

﴿والسابقون الأوّلون من المهاجرين﴾ هم الذين صلوا إلى القبلتين، وقيل: الذين شهدوا بدرًا، وعن الشعبي: من بايع بالحديبية، وهي: بيعة الرضوان ما بين الهجرتين ﴿و﴾ من ﴿الأنصار﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن، وقرأ عمر رضي الله عنه: والأنصار بالرفع عطفًا على ﴿السابقون﴾. وعن عمر أنه كان يرى أنّ قوله: ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ بغير واو: صفة للأنصار حتى قال له زيد: إنه بالواو، فقال: ائتوني بأبي، فقال: تصديق ذلك في أول الجمعة ﴿وآخرين منهم﴾[4] وأوسط الحشر ﴿والذين جاؤا من بعدهم﴾[5] وآخر الأنفال ﴿والذين آمنوا من بعده﴾[6] وروي: أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو فقال: من أقرأك؟ قال: أبي، فدعاه فقال: اقرأنيه رسول الله ﷺ وإنك لتبيع القرظ بالبقيع. قال: صدقت وإن شئت قلت: شهدنا وغبتم، ونصرنا وخذلتم، وآوينا وطردتم، ومن ثم قال عمر: لقد كنت أرانا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، وارتفع السابقون بالابتداء[7]، وخبره ﴿رضي الله عنهم﴾ ومعناه رضي عنهم لأعمالهم ﴿ورضوا عنه﴾ لما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية. وفي مصاحف أهل مكة: تجري من تحتها، وهي: قراءة ابن كثير، وفي سائر المصاحف تحتها بغير من.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾.

﴿وممن حولكم﴾ يعني: حول بلدتكم وهي المدينة ﴿منافقون﴾ وهم: جهينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها ﴿ومن أهل المدينة﴾ عطف على خبر المبتدأ الذي هو: ممن حولكم، ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت، ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، على أنّ مردوا صفة لموصوف محذوف كقوله: أنا ابن جلاء، وعلى الوجه الأوّل لا يخلو من أن يكون كلامًا مبتدأ أو صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره ﴿مردوا على النفاق﴾ تمهروا فيه من مرن فلان عمله ومرد عليه إذا درب به وضري حتى لان عليه ومهر فيه، ودلّ على مرانتهم عليه ومهارتهم فيه بقوله ﴿لا تعلمهم﴾ أي: يخفون[8] عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لفرط تنوقهم في تحامي ما يشكك في أمرهم، ثم قال: ﴿نحن نعلمهم﴾ أي: لا يعلمهم إلا الله ولا يطلع على سرهم غيره؛ لأنهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم إبطانًا، ويبرزون لك ظاهرًا كظاهر المخلصين من المؤمنين لا تشك معه في إيمانهم، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به فلهم فيه اليد الطولى ﴿سنعذبهم مرتين﴾ قيل: هما القتل وعذاب القبر، وقيل: الفضيحة وعذاب القبر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنهم اختلفوا في هاتين المرّتين، فقال: قام رسول[9] الله ﷺ خطيبًا يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق، فاخرج ناسًا وفضحهم». فهذا العذاب الأوّل، والثاني: عذاب القبر، وعن الحسن: أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم ﴿إلى عذاب عظيم﴾ إلى عذاب النار.

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾.

﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ أي: لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا متذممين نادمين وكانوا ثلاثة، أبو لبابة

---

(1) رواه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة (الحديث رقم: 1497)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: الدعاء لمن أتى بصدقة (الحديث رقم: 2489).

(2) سورة التوبة، الآية: 103.

(3) قال أحمد: والقدرية كما علمت مذهب في أن الفاسق ليس بمؤمن، ولا كافر، وأنه مخلد في النار، وإن كان موحداً، وغرض الزمخشري أن يجعل الفسق الذي وسم به المنافق، هو الذي يوسم به الموحد، حتى يكون استحقاقهما للخلود واحداً، فاحذره، والله أعلم.

(4) سورة الجمعة، الآية: 3.

(5) سورة الحشر، الآية: 10.

(6) سورة الأنفال، الآية: 75.

(7) رواه الطبري وابن مردويه الزيلعي 2/ 95. 96.

(8) قال أحمد: وكان قوله تعالى: ﴿مردوا على النفاق﴾ توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه عليه الصلاة والسلام، لما لهم من الخبرة في النفاق، والضراوة به، والله أعلم.

(9) رواه الطبراني في الأوسط، والطبري والثعلبي، الزيلعي 2/ 96.

مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام، وقيل: كانوا عشرة، فسبعة منهم أوثقوا أنفسهم، بلغهم ما نزل في المتخلفين فأيقنوا بالهلاك فأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت عادته ﷺ كلما قدم من سفر، فرآهم موثقين فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلهم، فقال: «وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم» فنزلت، فأطلقهم وعذرهم، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا»[1] فنزلت: ﴿خذ من أموالهم عملاً صالحًا﴾ خروجًا إلى الجهاد ﴿وآخر سيئًا﴾ تخلفًا عنه، عن الحسن، وعن الكلبي: التوبة والإثم.

فإن قُلْتَ[2]: قد جعل كل واحد منهما مخلوطًا فما المخلوط به؟ **قُلْتُ**: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به؛ لأنّ المعنى خلط كل واحد منهم بالآخر كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن؛ لأنك جعلت الماء مخلوطًا واللبن مخلوطًا به، وإذا قلته بالواو: جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطًا بهما كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء، ويجوز أن يكون من قولهم: بعت الشاة شاة ودرهمًا بمعنى شاة بدرهم.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿أن يتوب عليهم﴾ وما ذكرت توبتهم؟ **قُلْتُ**: إذا نكر اعترافهم بذنوبهم وهو دليل على التوبة فقد ذكرت توبتهم ﴿لتطهرهم﴾ صفة لصدقة وقرئ: تطهرهم من أطهره بمعنى: طهره، وتطهرهم بالجزم جوابًا للأمر. ولم يقرأ: وتزكيهم إلا بإثبات الياء والتاء في تطهرهم للخطاب، أو لغيبة المؤنث، والتزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الأنماء والبركة في الماء ﴿وصلّ عليهم﴾ واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، والسنة أن يدعو المصدّق لصاحب الصدقة إذا أخذها، وعن الشافعي رحمه الله: أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة: آجرك الله فيما أعطيت وجعله طهورًا وبارك لك فيما أبقيت. وقرئ: إنّ صلاتك على التوحيد ﴿سكن لهم﴾ يسكنون إلي وتطمئنّ قلوبهم بأنّ الله قد تاب عليهم ﴿والله سميع﴾ يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعائهم ﴿عليم﴾ بما في ضمائرهم والغمّ من الندم لما فرط منهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾.

وقرئ: ﴿ألم يعلموا﴾ بالياء والتاء وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد المتوب عليهم يعني: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم ﴿إنّ الله هو يقبل التوبة﴾ إذا صحت، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية، وهو: للتخصيص والتأكيد وأنّ الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين، وقيل: معنى التخصيص في ﴿هو﴾ أنّ ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها فاقصدوه بها ووجهوها إليه.

﴿وقل﴾ لهؤلاء التائبين ﴿اعملوا﴾ فإنّ عملكم لا يخفى ـ خيرًا كان أم شرًا ـ على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم. والثاني: أن يراد غير التائبين ترغيبًا لهم في التوبة، فقد روي أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم؟ فنزلت.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿ويأخذ الصدقات﴾؟ **قُلْتُ**: هو مجاز عن قبوله لها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إنّ الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل[3]، والمعنى: أنه يتقبلها ويضاعف عليها، وقوله: ﴿فسيرى الله﴾ وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة.

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾.

قرئ: مرجون ومرجؤن من أرجيته وأرجأته إذا أخرته ومنه المرجئة يعني: وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم ﴿إمّا يعنبهم﴾ إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا ﴿وإمّا يتوب عليهم﴾ إن تابوا وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغم، فلما علموا أنّ أحدًا لا ينظر إليهم فوّضوا أمرهم إلى الله تعالى وأخلصوا نياتهم ونصحت

---

(1) رواه البيهقي في دلائل النبوة.

(2) قال أحمد: والتحقيق في هذا أنك إذا قلت خلطت الماء باللبن، فالمصرح به في هذا الكلام، أنّ الماء المخلوط، واللبن مخلط به، والمدلول عليه لزوماً، لا تصريحاً، كون الماء مخلوطاً به، واللبن مخلوطاً، وإذا قلت خلطت الماء، واللبن، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطاً، وأما ما خلط به كل واحد منهما، فغير مصرح به بل من اللازم أنّ كل واحد منهما مخلوط به، ويحتمل أن يكون قرينة، أو غيره، فقول الزمخشري إنّ قولك خلطت الماء = واللبن، يفيد ما يفيده مع الباء، وزيادة ليس كذلك، فالظاهر في الآية، والله أعلم أنّ العدول عن الباء، إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل، كأنه قيل عملوا عملاً صالحاً، وآخر سيئاً ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط، فعبر عنهما معابه، والله أعلم.

(3) رواه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة من كسب طيب (الحديث رقم: 1410) ومسلم في صحيحه كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من كسب الطيب وتربيتها (الحديث رقم: 2339).

توبتهم فرحمهم الله[1] ﴿والله عليم حكيم﴾ وفي قراءة عبد الله: غفور رحيم، ﴿وإمّا﴾ للعباد أي: خافوا عليهم العذاب، وأرجو لهم الرحمة.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾.

في مصاحف أهل المدينة والشام ﴿الذين اتخذوا﴾ بغير واو؛ لأنها قصة على حيالها وفي سائرها بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم. روي أنّ بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا: نبني مسجدًا ونرسل إلى رسول الله ﷺ يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتهم، وهو الذي سماه رسول الله ﷺ «الفاسق»، وقال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم. فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هاربًا إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوّة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر، وآت بجنود ومخرج محمدًا وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجدًا بجنب مسجد قباء وقالوا للنبي ﷺ: بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال ﷺ: «إني على جناح سفر وحال شغل، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه» فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد، فنزلت عليه، فدعا بمالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن ووحشي قاتل حمزة فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه». ففعلوا «وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الحيف والقمامة» ومات أبو عامر بالشام بقنسرين[2] ﴿ضرارًا﴾ مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة ﴿وكفرًا﴾ وتقوية للنفاق ﴿وتفريقًا بين المؤمنين﴾؛ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتص بهم، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم ﴿وإرصادًا﴾ وإعدادًا ﴿لـ﴾ أجل ﴿من حارب الله ورسوله﴾ وهو: الراهب أعدوه له ليصلي فيه، ويظهر على رسول الله ﷺ، وقيل: كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار، وعن شقيق: أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلي فيه فإنه بني على ضرار، وكل مسجد بني على ضرار أو رياء أو سمعة فإنّ أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضرارًا، وعن عطاء، لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضي الله عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه.

فإن قُلْتَ: ﴿والذين اتخذوا﴾ ما محله من الإعراب؟ **قُلْتُ:** محله النصب على الاختصاص كقوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾[3] وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف معناه: وفيمن وصفنا الذين اتخذوا كقوله: ﴿والسارق والسارقة﴾[4].

فإن قُلْتَ: بم يتصل قوله ﴿من قبل﴾؟ **قُلْتُ:** باتخذوا أي: اتخذوا مسجدًا من قبل أن ينافي هؤلاء بالتخلف ﴿إن أردنا﴾ ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿إلا﴾ الخصلة ﴿الحسنى﴾ أو الإرادة الحسنى وهي: الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾.

﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ قيل: هو مسجد قباء أسسه رسول الله ﷺ، وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهي: يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج يوم الجمعة وهو أولى، لأنّ الموازنة بين مسجد قباء أوقع، وقيل: هو: مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وعن أبي سعيد الخدري: سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة»[5] ﴿من أول يوم﴾ من أول يوم من أيام وجوده ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ قيل: لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال: «أمؤمنون أنتم؟» فسكت القوم، ثم أعادها فقال عمر: يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم، فقال ﷺ: «أترضون بالقضاء»؟ قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء»؟ قالوا: نعم، قال: «تشكرون في الرخاء»، قالوا: نعم. قال ﷺ: «مؤمنون ورب الكعبة»، فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار»، إنّ الله عزّ وجلّ قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟ فقالوا: يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء، فتلا النبي ﷺ[6] ﴿رجال يحبون أن يتطهروا﴾ وقرئ: أن يطهروا بالإدغام، وقيل: هو عام في التطهر من النجاسات كلها، وقيل: كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ويتبعون

---

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب: المغازي، باب: حديث كعب (الحديث رقم: 4418)، ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 53ـ 2769).

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 147، وذكره ابن هشام في السيرة 2/ 529ـ 530.

(3) سورة النساء، الآية: 162.

(4) سورة المائدة، الآية: 38.

(5) رواه مسلم في كتاب: الحج، باب: بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى (الحديث رقم: 3373).

(6) رواه الطبراني في الأوسط الزيلعي 2/ 104.

الماء بأثر البول، وعن الحسن: هو التطهر من الذنوب بالتوبة، وقيل: يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى المحبتين؟ **قُلْتُ:** محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء المشتهي له على إيثاره، ومحبة الله تعالى إياهم أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾.

قرئ: أسس بنيانه وأسس بنيانه على البناء للفاعل والمفعول، وأسس بنيانه جمع أساس على الإضافة، وأساس بنيانه بالفتح والكسر جمع أس، وآساس بنيانه على أفعال جمع أس أيضًا وأس بنيانه، والمعنى: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهي: الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه **﴿خير أم من﴾** أسسه **على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء**، وهو: الباطل والنفاق الذي مثله مثل **﴿شفا جرف هار﴾** في قلة الثبات والاستمساك، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنه جعل مجازًا عما ينافي التقوى.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: **﴿فانهار به في نار جهنم﴾**؟ **قُلْتُ:** لما جعل الجرف الهائر مجازًا عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنم على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف وليصور أنّ المبطل كأنه أسس بنيانًا على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به وذلك الجرف فهوى في قعرها، والشفا: الحرف، والشفير وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيًا، والهار الهائر وهو: المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط ووزنه: فعل قصر عن فاعل، كخلف من خالف، ونظيره شاك وصات في شائك وصائت، وألفه ليست بألف فاعل إنما هي عينه، وأصله هور وشوك وصوت، ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدلّ على حقيقة الباطل وكنه أمره. وقرئ: جرف بسكون الراء.

فإن قُلْتَ: فما وجه ما روى سيبويه عن عيسى بن عمر **﴿على تقوى من الله﴾** بالتنوين؟ **قُلْتُ:** قد جعل الألف للإلحاق لا للتأنيث كتترى فيمن نوّن ألحقها بجعفر، وفي مصحف أبيّ فانهارت به قواعده، وقيل: حفرت بقعة من مسجد الضرار فرؤي الدخان يخرج منه، وروي أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لمجمع فيؤمّهم في مسجدهم فقال: لا ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ فوالله لقد صليت بهم والله يعلم أني لا أعلم ما أضمروا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلامًا قارئًا للقرآن وكانوا شيوخًا لا يقرؤن من القرآن شيئًا، فعذره وصدقه وأمره بالصلاة بقومه.

لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾.

﴿ريبة﴾ شكًا في الدين ونفاقًا، وكان القوم منافقين وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم كما قال عزّ وجل: **﴿ضرارًا وكفرًا﴾**[1] فلما هدمه رسول الله ﷺ ازدادوا لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم تصميمًا على النفاق ومقتًا للإسلام فمعنى قوله: **﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾** لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحل أثره **﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾** قطعًا وتفرّق أجزاء فحينئذ يسلون عنه، وأمّا ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون نكر التقطيع تصويرًا لحال زوال الريبة عنها، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم، أو في القبور أو في النار، وقرئ: يقطع بالياء، وتقطع بالتخفيف، وتقطع بفتح التاء بمعنى: تتقطع وتقطع قلوبهم على أن الخطاب للرسول أي: إلا أن تقطع أنت قلوبهم بقتلهم، وقرأ الحسن: إلى أن، وفي قراءة عبد الله: ولو قطعت قلوبهم، وعن طلحة: لو قطعت قلوبهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب، وقيل معناه: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندمًا وأسفًا على تفريطهم.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾.

مثل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشروى، وروى تاجرهم فأغلى لهم الثمن، وعن عمر رضي الله عنه: فجعل لهم الصفقتين جميعًا، وعن الحسن: أنفسًا هو خلقها وأموالاً هو رزقها، وروي: أن الأنصار حين بايعوه على العقبة قال عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، واشترط لنفسي أن تمنعوني بما تمنعون منه أنفسكم»، قال: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «لكم الجنة»، قالوا: اربح البيع لا نقيل ولا نستقيل»[2]، ومرّ برسول الله ﷺ أعرابيّ وهو يقرؤها فقال: كلام من؟ قال:

(1) سورة التوبة، الآية: 107.

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 148.

«كلام الله» قال: بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله، فخرج إلى الغزو فاستشهد[1] ﴿يقاتلون﴾ فيه معنى: الأمر كقوله ﴿تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾[2] وقرئ: فيقتلون ويقتلون على بناء الأوّل للفاعل والثاني للمفعول، وعلى العكس ﴿وعدًا﴾ مصدر مؤكد اخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد اثبته ﴿في التوراة والإنجيل﴾ كما اثبته في القرآن ثم قال: ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾؛ لأنّ إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلف مع جوازه عليهم لحاجتهم، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح قط؟ ولا ترى ترغيبًا في الجهاد أحسن منه وأبلغ.

التَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾.

﴿التائبون﴾ رفع على المدح أي: هم التائبون يعني: المؤمنين المذكورين ويدل عليه قراءة عبد الله وأبيّ رضي الله عنهما: التائبين بالياء إلى والحافظين نصبًا على المدح ويجوز أن يكون جرًّا صفة للمؤمنين، وجوّز الزجاج: أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي: التائبون العابدون من أهل الجنة أيضًا وإن لم يجاهدوا كقوله: ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾[3] وقيل: هو رفع على البدل من الضمير في يقاتلون، ويجوز أن يكون: مبتدأ وخبره العابدون وما بعده خبر بعد خبر أي: التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال، وعن الحسن هم: الذين تابوا من الشرك وتبرّؤا من النفاق و ﴿العابدون﴾ الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة وحرصوا عليها و ﴿السائحون﴾ الصائمون شبهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم، وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه. قيل: قال ﷺ لعمه أبي طالب: «أنت أعظم الناس عليّ حقًا وأحسنهم عندي يدًا، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي». فأبى فقال: «لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه»[4] فنزلت، وقيل: لما افتتح مكة: «سأل أي أبويه أحدث به عهدًا؟» فقيل: أمك آمنة فزار قبرها بالأبواء، ثم قام مستعبرًا فقال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي» فنزلت. وهذا أصح؛ لأنّ موت أبي طالب كان قبل الهجرة وهذا آخر ما نزل بالمدينة. وقيل: استغفر لأبيه، وقيل: قال المسلمون: ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا وذوي قرابتنا وقد استغفر إبراهيم لأبيه وهذا محمد يستغفر لعمه.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾.

﴿ما كان للنبي﴾ ما صح له الاستغفار في حكم الله وحكمته ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ لأنهم ماتوا على الشرك.

قرأ طلحة: وما استغفر إبراهيم لأبيه وعنه وما يستغفر إبراهيم على حكاية الحال الماضية ﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ أي: وعدها إبراهيم أباه وهو قوله: ﴿لأستغفرن لك﴾[5] ويدل عليه قراءة الحسن، وحماد الرواية: وعدها أباه.

فإن قُلْتَ: كيف خفي على إبراهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده؟ **قُلْتُ**: يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي؛ لأنّ العقل يجوز أن يغفر الله للكافر ألا ترى إلا قوله عليه السلام لعمه: «لأستغفرن لك ما لم أنه» وعن الحسن: قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانًا يستغفر لآبائه المشركين؟ فقال: «ونحن نستغفر لهم[6] فنزلت. وعن علي رضي الله عنه: رأيت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له فقال: أليس قد استغفر إبراهيم»[7].

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾؟ **قُلْتُ**: معناه فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن، وأنه يموت كافرًا، وانقطع رجاؤه عنه، قطع استغفاره، فهو كقوله: ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ أواه فعال من أوه كلأل من اللؤلؤ، وهو الذي يكثر التأوه ومعناه: أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله: ﴿لأرجمنك﴾[8] يعني: ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين[9] أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ولا يسميهم ضلالاً، ولا

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 2/105.

(2) سورة الصف، الآية: 11.

(3) سورة الحديد، الآية: 10.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، (الحديث رقم: 1360)، ومسلم في صحيحه كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت (الحديث رقم: 131).

(5) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(6) قال الزيلعي: غريب، وذكره الثعلبي عن قتادة لا عن الحسن 2/ =

= 106.

(7) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، (الحديث رقم: 3101) والنسائي في كتاب (الجنائز) باب: النهي عن الاستغفاء للمشركين (الحديث رقم: 2036).

(8) سورة مريم، الآية: 46.

(9) قال أحمد: هذا تفريع على قاعدة التحسين، والتقبيح، وأن العقل حاكم، والشرع كاشف لما غمض عليه تابع لمقتضاه، وهذه القاعدة قد سبق بطلانها في غير ما موضع، والله الموفق.

يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم بأنه واجب الاتقاء والاجتناب، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم، وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه، وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها، وهي أنّ المهدي للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل في حكم الإضلال.

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾.

والمراد بما يتقون: ما يجب اتقاؤه للنهي فأما ما يعلم بالعقل كالصدق في الخبر ورد الوديعة فغير موقوف على التوقيف **﴿تاب الله على النبي﴾** كقوله: **﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾**[1] وقوله: **﴿واستغفر لذنبك﴾**[2] وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوّابين الأوّابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح، وقيل معناه: تاب الله عليه من إننه للمنافقين في التخلف عنه كقوله: **﴿عفا الله عنك﴾**[3] **﴿في ساعة العسرة﴾** في وقتها، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق كما استعملت الغداة والعشية واليوم. غداة طفت علماء بكر بن وائل.

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ... عشية قارعنا جذام وحميرًا

إذا جاء يومًا وارثي يبتغي الغنى ... يجد جمع كف غير ملأى ولا صفرًا

والعسرة حالهم في غزوة تبوك، كانوا في عسرة من الظهر يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي عسرة من الزاد، تزودا التمر المدوّد والشعير المسوّس والأهالة الزنخة، وبلغت بهم الشدّة أن اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء، وفي عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها، وفي شدّة زمان من حمارة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة **﴿كاد تزيغ قلوب فريق منهم﴾** عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه، وفي كاد ضمير الشأن وشبهه سيبويه بقولهم: ليس خلق الله مثله، وقرئ* يزيغ بالياء، وفي قراءة عبد الله: من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم يريد المتخلفين من المؤمنين كأبي لبابة وأمثاله **﴿ثم تاب عليهم﴾** تكرير للتوكيد، ويجوز أن يكون الضمير للفريق تاب عليهم لكيد ودتهم.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾.

﴿الثلاثة﴾ كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ومعنى **﴿خلفوا﴾** خلفوا عن الغزو، وقيل: عن أبي لبابة وأصحابه حيث تيب عليهم بعدهم، وقرئ*: خلفوا أي: خلفوا الغازين بالمدينة، أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم، وقرأ جعفر الصادق رضي الله عنه: خالفوا وقرأ الأعمش: وعلى الثلاثة المخلفين **﴿بما رحبت﴾** برحبها أي: مع سعتها. وهو مثل للحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانًا يقرّون فيه قلقًا وجزعًا مما هم فيه **﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾** أي: قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنها خرجت من فرط الوحشة والغمّ **﴿وظنوا﴾** وعلموا **﴿أنْ لا ملجا من﴾** سخط **﴿الله إلا﴾** إلى استغفاره **﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾** ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرّة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا، وليتوبوا أيضًا فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة علمًا منهم أن الله تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. روى أن ناسًا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به، عن الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيرًا من مائة ألف درهم فقال: يا حائطاه ما خلفني إلا ظلك وانتظار ثمرك اذهب فأنت في سبيل الله، ولم يكن لآخر إلا أهله فقال: يا أهلاه ما بطأني ولا خلفني إلا الضن بك لا جرم والله لأكابدنّ المفاوز حتى ألحق برسول الله فركب ولحق به، ولم يكن لآخر إلى نفسه لا أهل ولا مال فقال: يا نفسي ما خلفني إلا حب الحياة لك والله لأكابدنّ الشدائد حتى ألحق برسول الله ﷺ فتابط زاد ولحق به، قال الحسن: كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها، وعن أبي ذرّ الغفاري أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، فقال رسول الله ﷺ لما رأى سواده: «كن أبا ذر» فقال الناس: هو ذاك، فقال: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[4]، وعن أبي خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصير وقربت إليه الرطب والماء البارد فنظر فقال: ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ في الضحّ والريح! ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرّ كالريح، فمدّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال: «كن أبا خيثمة» فكانه، ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له، ومنهم من بقي لم يلحق به منهم الثلاثة. قال كعب: لما قفل رسول الله ﷺ

(1) سورة الفتح، الآية: 2.

(2) سورة غافر، الآية: 55.

(3) سورة التوبة، الآية: 43.

(4) رواه الحاكم في المستدرك 3/50.

سلمت عليه فردّ عليّ كالمغضب بعدما ذكرني وقال: «ليت شعري ما خلف كعبًا»؟ فقيل له: ما خلفه إلا حسن برديه والنظر في عطفيه، فقال: «معاذ الله ما أعلم إلا فضلاً وإسلامًا»[1] ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهنّ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع: أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجدًا وكنت كما وصفني ربي ﴿**وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم**﴾ وتتابعت البشارة، فلبست ثوبي وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمين، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وقال: لتهنك توبة الله عليك، فلن أنساها لطلحة، وقال رسول الله ﷺ وهو يستنير استنارة القمر: «أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك». ثم تلا علينا الآية، وعن أبي بكر الورّاق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾.

﴿**مع الصادقين**﴾ وقرئ: من الصادقين وهم الذين صدقوا في دين الله نية وقولاً وعملاً، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾[2] وقيل: هم الثلاثة أي: كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب أي: كونوا مع المهاجرين والأنصار ووافقوهم وانتظموا في جملتهم واصدقوا مثل صدقهم، وقيل: لمن تخلف من الطلقاء عن غزوة تبوك، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يصلح الكذب في جدّ ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجزه، اقرؤا إن شئتم ﴿**وكونوا مع الصادقين**﴾ فهل فيها من رخصة؟

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾.

﴿**ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه**﴾ أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علمًا بأنها أعزّ نفس عند الله وأكرمها عليه فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدّة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيموا لها وزنًا وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربئوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها يضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ مع تقبيح لأمرهم وتوبيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته بانفة وحمية ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله: ما كان لهم أن يتخلفوا من وجوب مشايعته كأنه قيل: ذلك الوجوب ﴿**بأنهم لا يصيبهم**﴾ سبب ﴿**ظمأ**﴾ شيء من عطش ولا تعب ولا مجاعة في طريق الجهاد، ولا يدرسون مكانًا من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم، ولا يتصرفون في أرضهم تصرفًا يغيظهم ويضيق صدورهم ﴿**ولا ينالون من عدوّهم نيلاً**﴾ ولا يرزؤنهم شيئًا بقتل أو أسر أو غنيمة أو هزيمة أو غير ذلك ﴿**إلا كتب لهم به عمل صالح**﴾ واستوجبوا الثواب ونيل الزلفى عند الله وذلك مما يوجب المشايعة، ويجوز أن يراد بالوطء: الإيقاع والإبادة لا الوطء بالأقدام والحوافر كقوله عليه السلام: «آخر وطأة وطئها الله بوج»[3] والموطئ إمّا مصدر كالمورد، وإمّا مكان، فإن كان مكانًا فمعنى يغيظ الكفار: يغيظهم وطؤه، والنيل أيضًا يجوز أن يكون مصدرًا مؤكدًا وأن يكون بمعنى المنيل، ويقال: نال منه إذا رزأه نقصه، وهو عام في كل ما يسوءهم وينكبهم ويلحق بهم ضررًا، وفيه دليل على أن من قصد خيرًا كان سعيه فيه مشكورًا، من قيام وقعود ومشي وكلام وغير ذلك، وكذلك الشر، وبهذه الآية استشهد أصحاب أبي حنيفة أنّ المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش في الغنيمة؛ لأنّ وطء ديارهم مما يغيظهم وينكي فيهم، ولقد أسهم النبي ﷺ لابني عامر وقد قدما بعد تقضي الحرب[4]، وأمد أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه المهاجرين أبي أمية وزياد بن أبي لبيد بعكرمة بن أبي جهل مع خمسمائة نفس فلحقوا بعدما فتحوا فأسهم لهم[5]، وعند الشافعي: لا يشارك المدد الغانمين. وقرأ عبيد بن عمير: ظماء بالمدّ يقال: ظمئ ظماءة وظماء.

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾.

﴿**ولا ينفقون نفقة صغيرة**﴾ ولو تمرة ولو علاقة سوط ﴿**ولا كبيرة**﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة ﴿**ولا يقطعون واديًا**﴾ أي: أرضًا في

(1) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: حديث كعب (الحديث رقم: 4418) ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 6947).

(2) سورة الأحزاب، الآية: 23.

(3) رواه أحمد في مسنده 6/409.

(4) رواه أبو داود نحوه في كتاب: الجهاد، باب: فيمن جاء بعد الغنيمة لا سهم له (الحديث رقم: 2725) والترمذي مختصرًا، وأخرج البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب: غزوة خيبر (الحديث رقم: 4223).

(5) ذكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 12/115.

ذهابهم ومجيئهم، والوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذًا للسيل وهو في الأصل فاعل من ودي إذا سال، ومنه الودي، وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض يقولون: لا تصلّ في وادي غيرك ﴿إلا كتب لهم﴾ ذلك من الأنفاق وقطع الوادي، ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح وقوله ﴿ليجزيهم﴾ متعلق بكتب أي: أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء.

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾.

اللام لتأكيد النفي[1] ومعناه: أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن، وفيه: أنه لو صح وأمكن ولم يؤدّ إلى مفسدة لوجب، لوجوب النفقة على الكافة، ولأنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ﴿فلولا نفر﴾ فحين لم يمكن نفير الكافة ولم يكن مصلحة فهلا نفر ﴿من كل فرقة طائفة﴾ أي: من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة يكفونهم النفير ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها ﴿ولينذروا قومهم﴾ وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة، ويؤمّونه من المقاصد الركيكة، من التصدّر والترؤس والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضًا، وفشو داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر أو شرمذة جثوا بين يديه، وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم، فما أبعد هؤلاء من قوله عزّ وجلّ: ﴿لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا﴾[2] ﴿لعلهم يحذرون﴾ إرادة أن يحذروا الله فيعملوا عملاً صالحًا، ووجه آخر وهو: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعثًا بعد غزوة تبوك وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد، استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعًا عن استماع الوحي والتفقه في الدين، فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر؛ لأن الجدال بالحجة أعظم أثرًا من الجلاد بالسيف، وقوله: ﴿ليتفقهوا﴾ الضمير فيه للفرق الباقية بعد الطواف النافرة من بينهم ولينذروا قومهم، ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم، وعلى الأوّل الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾.

﴿يلونكم﴾ يقربون منكم[3]، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب ونظيره: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[4] وقد حارب رسول الله ﷺ قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم غزا الشام، وقيل: هم قريظة والنضير وفدك وخيبر، وقيل: الروم؛ لأنهم كانوا يسكنون الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق، وغيره وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى، وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن قتال الديلم فقال: عليك بالروم. وقرئ: غلظة بالحركات الثلاث فالغلظة كالشدّة، والغلظة كالضغطة، والغلظة كالسخطة ونحو: ﴿واغلظ عليهم﴾[5] ﴿ولا تهنوا﴾[6] وهو يجمع الجرأة أو الصبر على القتال وشدّة العداوة والعنف في القتل والأسر ومنه: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾[7] ﴿مع المتقين﴾ ينصر من اتقاه فلم يترك على عدوه.

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾.

﴿فمنهم من يقول﴾ فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض ﴿أيكم زادته هذه﴾ السورة ﴿إيمانًا﴾ إنكارًا واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به وأيكم مرفوع بالابتداء، وقرأ عبيد بن عمير: أيكم بالفتح على إضمار فعل يفسره زادته تقديره أيكم زادت زادته هذه إيمانًا ﴿فزادتهم إيمانًا﴾؛ لأنها أزيد لليقين والثبات وأثلج للصدر، أو فزادتهم عملاً، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان؛ لأنّ الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾.

---

(1) قال أحمد: قوله ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾، على التفسير الأوّل أمر لا نهي، وعلى الثاني خبر، المراد به النهي؛ لأنه في الأوّل راجع إلى تنفير أهل البوادي إلى المدينة للتفقه، وهذا لو أمكن الجميع فعله، لكان جائزاً، أو واجباً، وإن لم يمكن وجب على بعضهم القيام عن باقيهم على طريق وجوب الكفاية، وأمّا في الثاني، فلأنّ المؤمنين نفروا من المدينة للجهاد أجمعين، وكان ذلك ممكناً، بل واقعاً، فنهوا عن إطراح النفقة بالكلية، وأمروا به أمر كفاية، والله أعلم.

(2) سورة القصص، الآية: 83.

(3) قال أحمد: يتعين القتال على أحد فريقين، أمّا من نزل بهم عنوة، وفيهم قوّة عليه، ثم على من قرب منهم، حتى يكتفوا، وأما من عينهم الإمام لذلك، وإن بعدت بهم الدار، وإذا أوجب الله على هذه الأمّة القتال، وازعاج العدوّ من دياره، وإخراجه من قراره، فوجوبه وقد نزل العدوّ بدار الإسلام أجدر.

(4) سورة الشعراء، الآية: 214.

(5) سورة التوبة، الآية: 73.

(6) سورة آل عمران، الآية: 139.

(7) سورة النور، الآية: 2.

﴿فزادتهم رجسًا إلى رجسهم﴾ كفرًا مضمومًا إلى كفرهم؛ لأنهم كلما جددوا بتجديد الله الوحي كفرًا ونفاقًا أزاد كفرهم واستحكم وتضاعف عقابهم.

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾.

قرئ: أو لا يرون بالياء والتاء ﴿يفتنون﴾ يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم ولا يذكرون ولا يعتبرون ولا ينظرون في أمرهم، أو يبتلون بالجهاد مع رسول الله ﷺ ويعاينون أمره وما ينزل الله عليه من نصرته وتأييده، أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهود مع رسول الله ﷺ فيقتلهم وينكل بهم ثم لا ينزجرون.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾.

﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ تغامزوا بالعيون إنكارًا للوحي وسخرية به قائلين ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المسلمين لننصرف فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك فنخاف الافتضاح بينهم، أو تراقبوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لواذًا يقولون: هل يراكم من أحد، وقيل: معناه وإذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين ﴿صرف الله قلوبهم﴾[1] دعاء عليهم بالخذلان ويصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾.

﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم، ثم ذكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: شديد عليه شاق لكونه بعضًا منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب ﴿حريص عليكم﴾ حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رؤوف رحيم﴾. وقرئ: من أنفسكم أي: من أشرفكم وأفضلكم، وقيل: هي قراءة رسول الله ﷺ، وفاطمة وعائشة رضي الله عنهما، وقيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ في قوله: ﴿رؤوف رحيم﴾.

فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾.

﴿فإن تولوا﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك، فاستعن وفوض إليه فهو كافيك معرتهم ولا يضرونك وهو ناصرك عليهم. وقرئ: العظيم بالرفع، وعن ابن عباس رضي الله عنه: العرش لا يقدر أحد قدره، وعن أبي بن كعب: آخر آية نزلت: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ عن رسول الله ﷺ: «ما نزل علي القرآن إلا آية آية وحرفًا حرفًا ما خلا سورة، براءة وقل هو الله أحد، فإنهما أنزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس مكية

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾.

﴿الر﴾ تعديد للحروف على طريق التحدي و﴿تلك آيات الكتاب﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة و ﴿الحكيم﴾ ذو الحكمة لاشتماله عليها ونطقه بها، أو وصف بصفة محدثه قال الأعشى:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾.

الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه و﴿أن أوحينا﴾ اسم كان وعجبًا خبرها وقرأ ابن مسعود: عجب فجعله اسمًا وهو نكرة وأن أوحينا خبرًا وهو معرفة كقوله: يكون مزاجها عسل وماء. والأجود أن تكون كان تامّة وإن أوحينا بدلاً من عجب.

فإن قُلْتَ: فما معنى اللام في قوله: ﴿أكان للناس عجبًا﴾ وما الفرق بينه وبين قولك أكان عند الناس عجبًا؟ **قُلْتُ:** معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علمًا لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في عند الناس هذا المعنى والذي تعجبوا منه أن يوحي إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أنّ الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم

---

(1) قال أحمد: يحتمل الدعاء، كما فسره، ويحتمل الإخبار بأن الله صرف قلوبهم، أي: منعها من تلقي الحق بالقبول، ولكن الزمخشري يفرّ من جعله خبراً؛ لأنّ صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله تعالى عنده بناء على قاعدة الصلاح، والأصلح، ولا يزال يؤوّل الظاهر، إذا اقتضى ذلك، كما مرّ له في قوله ختم الله على قلوبهم، فلما احتملت هذه الآية الدعاء، والخبر على حدّ سواء = تعبر عنده جعلها دعاء، ثم في هذا الدعاء مناسبة للفعل الصادر منهم، وهو الانصراف، كقوله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم﴾، وكقوله: ﴿ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء﴾.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره.